مفاتيح غرناطة

بقلم الدكتور عمر النص

اشخاص المسرحية

السلطان ابو الحسن الغالب بالله
السلطان ابو عبدالله
السلطان محمد بن سعد الزغل
موسى بن ابي الغسان
السلطان با يزيد
السلطان الاشرف قايتباي
الوزير ابو القاسم عبدالملك
الملك فرديناند
الثريا
الاميرة عائشة
سفراء
قادة

ثم غرناطة بكاملها ، برجالها ونسائها ، بأعيانها وعامتها ، بفرسانها والمتخاذلين في الدفاع عنها ، والآكلين من لحمها ، والظامئين الى دمها ... الخ ..

□▼□

ليست هذه المسرحية تاريخا الاباحداثها، اما المأساة التي تصفها فانها جرح مفتوح ما يزال ينزف دما . فان كنا لا نجد اليوم في حلوقنا غير ذلك المذاق المر ، فلان سدا في غرناطة قد انكسر عام اثنين وتسعين واربعمائة والف لم يجد حتى اليوم من يعيد اليه الكبرياء التي اضاعها .

والاحداث التي نروي قصتها وقع اكثرها في غرناطة. ولكنها في مأساتنا تجري على مسرح عار الا من نقوش اندلسية تذكرنا بالايام التي غبرت ولكنها لا تبعدنا عن غيرها . وهو مسرح يستوي جانب منه ، فيما ترتفع جوانب اخرى ، حتى يتاح للاحداث كلها ان تأخذ مكانها عليه منفردة حينا ، مقرونة بغيرها حينا آخر . وليس في المسرحية ابطال يتداولون ادوارها ، بل اصوات تبحث عن وجوهها ، اصوات تبحث عن تاريخ لها . وكأن الممثلين الذين يتأهبون لادائها يدركون ان المسرحية كلها ليست الا محاكمة ، محاكمة بدأت منذ قرون وما تزال مستمرة حتى اليوم . فاذا بدا لاحدهم ان يخرج من المسرح او ان يدخل اليه فليفعل . بل فلينزل الى قاعة النظارة اذا شاء وليجلس فيها .

نعم . انها محاكمة ولكنها محاكمة لا قضاة فيها ، لان القضاة قد ماتوا . اما اولئك الدارجون على هذه الارض ، المغترون بزخرفها ، الغافلون عن ندوبها ، فليسوا الا مذنبين متهمين يعبرون هذا المسرح الكبير مرة بعدمرة، لتعاد المأساة على ايديهم مرة بعد مرة . فلنرث لفئة منهم اريد لها ان تعتلي خشبة المسرح فاعتلتها ، فلعلها لن تجد في نهاية المطاف غير الالفاظ تلوكها . اما تلك الفئة الكثيرة في عددها القليلة في غنائها ، فان فتور همتها قد اسلمها الى تلك المقاعد الوثيرة التي نسميها مقاعد المتفرجين — فأستسلمت لها ، قانعة بدورها ، مطمئنة الى براءتها ، واثقة بأن انصرافها عن الاحداث سوف يحميها ، فاذا لم تستطع هذه المأساة ان تزعزع ثقة هذه الفئة بغدها ، وتدفعها الى اعمال فكرها ويدها في ما يجري من حولها ، تكون غرناطة قد سقطت الى الابد .

تفتح الستارة . المنظر هو منظر افجع حدث في التاريخ : السلطان ابو عبدالله يسلم مفاتيح غرناطة .. الى اليمين موكب الملكين فرديناند وايزابيلا يحتشد وراءهما اتباعهما وجنودهما من حملة البيارق والطبول . والى اليسار ابو عبدالله يحمل مفاتيح غرناطة على مخدة ارجوانية .وفي اقصى المسرح يقف اتباع السلطان محزونين مقهورين . اصوات طبول تقرع قرعا بطيئا حزينا .

ابوعبدالله : لم يبق لنا الا التسليم لامر الله ..
انا عار الا من ذلي . انا عار الا من حزني.
عار الا من يأس يترك صدري تابوتا لا ينطق فيه سوى الموت..
يا ريحا تهدم اسواري
يا برقا يكسر مرآتي
هذي ابوابي قد نزعت ..هذي انهاري قد نضبت .
هذي كلماتي قد يبست ..
يبست حتى لم يبق لها صوت.. حتى ضاع المعنى منها ..
حتى صارت احجارا ترجم اوثانا لا اسم لها ..
لو كنت الها ..
لو كانت كلماتي تخلق كونا من عدم .
لو كان شبابي لم يشرب من سيل ..
من قيح ..
من جرح ينزف كالبشر .
لو كان الماضي ريحا عمياء نعيد لها ضوء العينين
لوقفت بباب الحمراء ..
ادعوها . أوقظ فيها تاريخا لم يشبع من نوع اغمى ...
لم يشبع من موت مذعور ..

من اسر لم يبق لهـا غير الظل
لرجعت اردالیهـا طيب الفرسان الثاوين وراء الغبـر
لهربت بها من ليل الكبر المذبوح
لنايت بها عـن مرآة تتهاوى فيهـا اطياف الايام المرة
لجعلت حجارتها اصدافا .. عقدا في عنق الكون
ولعشت بهـا ..
انسانا لا يطلب جاها او مـالا ..
لا يعشق الا زهر الليمون ..
الا غصنا تتدلـى منه عناقيد من ضوء مسحور ..
واليوم قـد اهترأ الثـوب ..
فانظر ما تصنع بالبلد العاري
هذا ملكـي قـد صار اليـك ..
فاعدل في شعبي .. في اهلي ..
خذهم بالرفـق ..
خذهم بالعـدل ..
عدهم بحياة لا يقلقهم فيها رعب
لا تصفعهم فيها ريـح هوجاء
لا تجلدهم فيهـا اصوات العار
هـذا ملكي ..
لـم يبق به الاعصار سوى اشباح جائعةالعين .
اشباح جائعـة الكبـر ..
خذها . خذ هذا الوجهالمهزوم ..
خذ هذا الكف المرتعش المذبوح بسكين الاقدار
خذ منه مفاتيح الحمراء ..
خذ منه بياض محاجر اجدادي ..
هذا مفتاح لم تمسسه يد من قبـل
مفتاح يفتح قبوا في غرناطة ..
قبوا مسدودا قد حبست فيه ازهار جاء بهـا عبدالرحمن الداخل
يوم اشاحت عنه الشام ..
قبوا مسدودا فيه ليلكة كانت تتأرج فيبيت من ابيات دمشق
فيه رايات قد عبرت مع طارق امواج البحر .
ووشاح كـان بقرطبة أيام الفتح ..
وخلاخيل كانت ولادة تلبسها في قصر ابيها المستكفي ..
فيه اقلام كان ابن زيدون يسقيها من يده شعرا ..
فيه قرطاس كان الشيخ الاكبر يكتب فيه ..
ودواة كان ابن رشد يغمس ريشته فيها ..
فيضيىء بها ليل الجهل ..
فيه قنديل قد شهد ابن طفيل يخلق انسانا من عقل..
خذهـا .. خذها ..
خذ مني مفتاح القبـو ..

(يدخل موسى بن ابي الغسان مندفعا لاهثـا
ويقف بين السلطان ابي عبدالله والملكفرديناند)

موسى : كلا . دع هذا المفتاح ..
لا تعجل ..
لا تغلق في وجهي هذا الباب ..
لا تجعل سدا ما بين الله وما بيني
كـلا .
لا تعط مفاتيح الحمراء الى الملك ..
دعها في صدرك كالطفل ..
بل دعها تصبح شريانا فيه ..
دعها في عينك تسقيها حتى تتسلق اهداب العينين .
حتى تتعانق كالورق الاخضر ..
فهنالك اسئلة شتى لم تبرح تحفر في ذهني
لم ضاعت منا غرناطـة ؟
أنهار من سم ما زالت تجري في صدري ..
وسيول من ملح محروق تضرم فيعيني جمرا ..
لم ضاعت منا غرناطة ؟
ابو عبدالله : هل عدت الينا يا موسى ؟
خلناك قد اجتزت البحـر ..
خلناك تركت لنا ان نشرب من هذي البئر المرة ..
من غير صديق يسأل عنا حين نغص بطعم الماء ..
من غير اخ نرتاح على زنديه حين نموت ..
موسى : هل عدت ؟ سؤال لا ادري ماذا يعني ..
أنا لست سوى شبح دام يرتاد مقاصير الحمراء ..
أنا لست سوى شبح مغدور يصرخ بحثا عن ثأر ..
ظل مقتول .. مهجور .. لا يرجع حيا الا في غرناطة ..
ابو عبدالله : فلنعط اذن هذا المفتاح ..
العهد قطعناه ان نخرج من غرناطة هذا اليوم ..
موسى : ماذا ؟ هل نترك غرناطـة ؟
في عيني عاصفة عمياء تكـاد تهد تخوم الكون ..
في صدري صوت مذبوح ينكسر مثل جراحات الرعد ..
هل ضاعت منا غرناطـة ؟
غرناطة حاضرة الدنيـا ..
احلى ما مر ببال الخالق من مدن ..
بل أغلى جوهرة في تاج الاسلام ..
لم ضاعت منـا ؟
لم صارت جارية في قصر امير من قشتالة ؟
من منا يحمل عبء الاثم ؟
من منا مسؤول عن نكبتها ؟
عن عار يسكب في عينيها ماء الاحـزان ..
عن جوع يطعمها خبزا ملعونا مسموما ..
من يحمل منا عبء الاثم ؟
هل ابطانا في نجدتهـا ..
هل قصرنا في نصرتها ..
لا . خلّ مفاتيح الحمراء ..
دعنا نتساءل ماذا حل بها ..
دعنا نتساءل ماذا كان يراد بها..
هل كنا ندفع عنها السيل ؟
هل كنا ندفع عن عينيها ليل الاعصار الغادر ..؟
أم كنا نغمس أظفارا سودا في دمها الاخضر .
دعنا نجتاز جدار الوهم ..
لا نترك بابا مرصودا ..
لا نترك نافذة عمياء تسد عيون الامس .
ولتأت الريـح بمـا تاتي .

(يدخل الراوي ويتجه الى المشاهدين .في حين
ينسحب موكب فرديناند وايزابيللا ويتفرق سائر
الممثلين في انحاء المسرح)

الراوي : لتأت الريح بما تأتي . لتأت بالنار . بالطوفان . بالنـدم الذي يلذع كالشرار . فيالها من معجزة اورقت في بدايتها حتى ظـن صانعوها أنهـا غارسة ظلالها في كل مكان . ولكن الذي حدث في غرناطة ليس حكايـة تحكى . ليس نبأ كالانباء . فماذا يراد مني ؟ الجرح الذي نزف في غرناطـة في يـوم من أيام التاريخ الحالك لما يزل ينزف حتى اليوم . والاعصار المجنون الذي مر على الحمراء فسلبها كل ما فيها، لـم يزل يهب على حواضرنا بيـن الحين والاخر فيسلبها كل ما فيها.

اما تلك المعجزة التي اقامها اولئك القادمون من الصحراء فما كان اعظمها ! ولكن ماذا يستطيع الانسان ان يصنع امام الزمان ؟ أعدل اذن ان نلعن الانسان عندما ينكسر امام ذلك الاعصار ؟ لقد ولدت المعجزة مرتين . مرة عندما حدثت. عندما انبثقت من صدر طائفة مؤمنة كما ينبثق الماء من نبع ثر . عندما منت بالارض . بالسماء . بالحجر تنحته فكرة . بالكلمة تصوغها صرحا . ثم ولدت مرة ثانية عندما وقفت في وجه الريح . في وجه الدمار . في وجه السيل الذي ينحدر من الشمال . ولكن من نكون نحن لنحكم على ما حدث في غرناطة ؟ الرمال الظمأى التي أكلت لحمنا حيا تخجل ان نتحدث باسمها . والشموس التي اضاءت لنا السماء تعلم اننا اضعناها على تلك الطريق الوعرة التي سلكناها . والمعجزة التي اقامها اولئك القادمون من الصحراء ليست اول معجزة نقتلها . ان نقتل المعجزات. ان ندسها في قبورها . هذا ما تعلمناه طوال تاريخنا الطويل . اعدل اذن ان نبصق في وجه ابي عبدالله ؟ أعدل اذن ان نصب عليه سخطنا. ان نقذفه بالجراح التي نزفت . بالنجوم التي افلت . بالندم الذي يلذع كالشرار ؟ ان ننصت . ان ننطق الزمان الذي راح . ان نرجع القهقرى الى وراء . الى وراء . هذا كل ما نستطيع ان نصنع . ولكن الى اين تصل بنا هذه الرحلة ؟ هذه المخاطرة في غياهب الزمن الاعمى . في طريق السيل المنحدر من الشمال ؟ الى اين تصل بنا؟ الى تلك الدولة التي مزقها الطمع . الى تلك الجثة التي عصفت بها الريح . الى غرناطة . تقف وحدها في وجه السيل الذي ينحدر من الشمال . تقف وحدها بعد ان سقطت اخواتها الواحدة تلو الاخرى. بعد ان سقطت قرطبة . بعد ان سقطت اشبيلية . بعد ان سقطت مرسيه . وحدها تحاول ان تدفع عنها الزمان الذي لا يدفع. ان تبعد عنها النهاية التي لا بداية بعدها . وحدها تعيش الدسائس التي يحوكها لها اخصامها . تعيش المكائد التي تعشش في قصورها. في صدور نسائها . في عقول رجالها. وحدها تنتظر ان يحكمها سلطانها الاخير . سلطانها الشقي . سلطانها الذي تريد له جارية رومية ان يزاح عن طريق ابنها . سلطانها الذي اثارت تلك الجارية الرومية اباه السلطان ابا الحسن الغالب بالله عليه فاراد له ان يهلك في غيابة سجن . اجل ان ننصت . ان تنطق الزمان الذي راح .ان نرجع الى وراء . الى البداية . الى البداية والنهاية . بداية السطلان ابي عبدالله اخر ملوك غرناطة . ونهاية تلك المعجزة التي اقامها اولئك القادمون من الصحراء . نهاية غرناطة .

(يدخل السلطان ابو الحسن وثريا)

ثريا : نعم . ان ما يدبر لك في الخفاء يثير خوفي . لقد حلمت ليلة امس انني ارى غربانا تحوم فوق القصر . وعندما استفقت من نومي خيل اليّ انني اسمع صوتا يصيح بي : لا بد ان تفعلي شيئا. لا بد ان تفعلي شيئا .

ابو الحسن : وماذا عسى ان تكون تلك الغربان ؟ ان الدماء التي سفكتها في قلاع القشتاليين جعلت الارض كلها غربانا .

ثريا : ومن اين لي ان اعلم يا مولاي ؟ ولكن الغربان التي رايتها كانت تحوم فوق هذا القصر .

ابو الحسن : تكلمي . هل تقصدين بهذا تلك النبوءة الخبيثة ؟

ثريا : اجل يا مولاي .

ابو الحسن : لو لم يكذب المنجمون لما احتاج الملوك اليهم . كلا يا ثريا . انا لا اصدق ما قاله ذلك العرّاف .

ثريا : ولكن ابنك ابا عبدالله يصدقه .انها نبوءة مرعبة يا مولاي . ألم تزعم ان ملك غرناطة سيدول على يد ابي عبدالله ؟

ابو الحسن : انها اكذوبة لفقها عرّاف مأفون .

ثريا : ولكنها اكذوبة مرعبة يا مولاي . ليتك ترى الى عيني ابي عبدالله كيف كانتا تضطربان كلما وقف على شرفة من شرفات الحمراء ثم اخذ يحدق الى غرناطة قلقا مغموما كأنه يلمح في الغيب زوالها من يده الى اخر الدهر .

ابو الحسن : لعله يحلم بامرأة جميلة بضمها فراشه .

ثريا : كلا يا مولاي . ولكنه يخاف ان تنقلب تلك الاكذوبة الى حقيقة مفزعة . انا لا أقصد الى الاساءة الى ابي عبدالله . ولكنني اريد بقاء غرناطة . أريد ان يملكها رجل يستطيع القتال دونها . يستطيع الدفاع عنها . اريد ان يملكها رجل نبيل شجاع كابني يحيى.

ابو الحسن : ابنك يحيى ؟ انت تمزحين يا ثريا ؟!

ثريا : انه فتى نبيل شجاع كما قلت . فتى لا تنقصه خلائق الملوك. ثم ان فيه مشابه منك لا يمكن ان تخطئها العين .

ابو الحسن : لو كان يحيى على ما تزعمين لكان لي معه شان اخر

ثريا : ان في عينيه تلك النظرة الصارمة القوية التي لم يرها احد الا عرف فيها انتسابه الى اب عظيم .

ابو الحسن : ولكنه ما يزال فتى غرا . فهل استطيع ان أكل اليه تبعة الملك ؟ هل استطيع ان أحمل الناس على الرضا به سلطانا مكان اخيه ابي عبدالله ؟

ثريا : اما ابو عبدالله فليس هنالك من ينكر عليه حقه في الملك . اليس هذا يا مولاي ؟

ابو الحسن : انه ابني الاكبر . ثم ...

ثريا : قلها يا مولاي . لا تخش ان تنزف كبريائي . ثم انه ابن الاميرة عائشة لا ابن جارية رومية لا يعرف احد اين نشات .

ابو الحسن : لا يا ثريا . لا تحاولي ان تجدي في قولي اشياء لم اردها .

ثريا : انها الحقيقة يا مولاي . انك تؤثر عائشة عليّ على الرغم مما تدبر في الخفاء لنفسها .

ابو الحسن : ماذا قلت ؟

ثريا : قلت ان عائشة تريد ان يكون الملك لنفسها قبل ان يكون لولدها .

ابو الحسن : كلا . انها امرأة عاقلة لا تدس انفها في شؤون لا تستطيع ان تصل الى فهمها .

ثريا : بل امرأة فيها طموح الرجال الى الملك .

ابو الحسن : لا ادري لم تنقمين عليها يا ثريا ؟

ثريا : انا انقم عليها ؟ كلا يا مولاي . ان غرناطة وحدها هي التي تشغل بالي .

ابو الحسن : وماذا يهمك من غرناطة وانت غريبة عنها . أسيرة فيها !

ثريا : يهمني ألا تدول كما دالت ممالك غيرها . ألا تفترسها الدسائس التي تحوكها لها عائشة .

ابو الحسن : لا . لا آذن لك ان تشتمي عائشة امامي .

ثريا : ليكن وفائي لك اقوى من حذري منها .

ابو الحسن : ولم تحذرين منها ؟ هل آذتك في قول او عمل ؟

ثريا : بل آذاني منها ان تحوك لك الدسائس حتى تستخلص الملك لها ولولدها .

ابو الحسن : هذا بهتان لا اريد ان يبلغ مسمعي .

ثريا : هل تريد بهذا ان تزعم انني كاذبة ؟

ابو الحسن : لا . لم أعن هذا . غير انني ارتاب في صدق ما تقولين .

ثريا : ولكنني لم اكذبك يا مولاي . فما انا الا امرأة تخلص لك الحب . وتريد لهذا الملك الذي جعلته بنيانا شامخا ان يظل شامخا . ثم هل تظن انني لا استطيع ان انفذ الى قلب عائشة

فأرى ما فيه ؟ هل تظنها تغفر لك زواجك بي ؟ لقد سال دمهـــا صديدا منذ شملتني ببرك الكريم فاتخذتني زوجا . ولو انك حـاولت الدخول الى اعماق نفسها لرأيت أي حقد اسود بغيض يسكنها .

ابو الحسن : ولكن عائشة بنت عم لي وأم ولدين من أولادي .

ثريا : لقد جعلها زواجك بي نمرة غضبى لا تكاد تفكر الا في أن تثأر لكرامتها .

ابو الحسن : ولكنني لم أسيء اليها . لم أنلها في كرامتهـــا . لقد أحسنت معاملتها على رغم زواجي من غيرها . فلم أترك نعمـــة من نعم الملك لم أغدقها عليها .

ثريا : انت يا مولاي سحابة ممطرة سخية ، ولكن ماذا تنتظـــر من ارض مجدبة جاحدة ؟

ابو الحسن : ارض مجدبة جاحدة ؟ ماذا تعني بهذا ؟

ثريا : ثم ليت جحودها هذا لم يصل بها الى ان تكيد لك وتتآمر عليك ايضا .

ابو الحسن : عائشة تتآمر عليّ ؟ كلا يا ثريا . انا لا استطيـع ان اصدق ما تقولين .

ثريا : انها تخاف ان يخرج الملك من يد ولدها . تخاف ان تزن فضائل ابي عبد الله فتؤثر عليه اخاه يحيى .

ابو الحسن : ولكن ما شأنها في هذا كله ؟ أليس من حقـــي ان اضع مكاني من اشاء ؟

ثريا : بلى يا مولاي . ولكن عائشة تريد الملك لولدها مهما يكـن ثمن هذا الملك .

ابو الحسن : ويلها مني ! ويلها مني !

ثريا : لقد حشدت له انصارها . لقد بعثت الى كبراء الدولـــة تطمعهم بنفوذها وتستميلهم بمالها .

ابو الحسن : هل تقدم عائشة على مثل هذا ؟

ثريا : انت تعلم ان لها سندا من بني عمومتها وانصارهـــا مـن بني سراج .

ابو الحسن : بنو سراج ؟ ويلهم مني ! ويلهم مني ! ساجعـــل دماءهم تسيل في قصري كما يسيل الماء في قاعة السباع .

ثريا : من يدري يا مولاي ؟ لعلك ان اخذتها بالرفق ان ترجـع عن غيها .

ابو الحسن : كلا . كلا . لن ارفق بها . لن اجعل ملكي صفقة تتقاسمها مع انصارها .

ثريا : معاذ الله ان انصح لك بهذا يا مولاي . ولكنني اخـاف ان يصيبك اذى على يدها .

ابو الحسن : سأعمل على اتقاء أذاها . سأعرف كيف اكافئهـــا على خيانتها لي .

ثريا : لا أظن حمقها قد انساها حذرها يا مولاي . فلعلها قـد احاطت نفسها بالجند يحمونها .

ابو الحسن : لن يحميها احد مني . سأضعها في الاغـــلال . سأسلكها في السلاسل . سأسجنهـا وولديها في برج قمارش .

ثريا : أبهذا تأمن شرها وشر ولديها ؟

ابو الحسن : اجل . اجل .

ثريا : وانصارها ؟ هل تظنهم يستكينون اذا علموا بأسرها ؟ هـــل تظنهم يستسلمون فلا يعملون على استنقاذها ؟

ابو الحسن : بماذا تشيرين اذن ؟

ثريا : لا أدري . لعلك تأمر بنفيها وولديها .

ابو الحسن : وماذا افيد ان انا نفيتها وولديها ؟ قد تجد فـــي منفاها نفوسا موتورة تصيخ الى دسائسها وتناصرها في عدائها لي .

ثريا : ماذا تريد ان تصنع اذن ؟

ابو الحسن : لا ادري . يخيل الي انني اساق برغمي الى هاوية لا اريد ان انتهي اليها .

ثريا : تأنّ يامولاي . فلعل النجوم كانت تكذب عندمـا نظر فيها العرّاف فلم ير الا شؤمـا .

ابو الحسن : كلا . لقد أطلت الصبر ولكن الاحداث لـــم تكن صابرة . ان الامير ابا عبد الله ابني . ولكن غرناطة امانة في عنقـي لا استطيع أن أتركها لفتى تزعم النجوم انه سوف يضيعها .

ثريا : ليت هذه السنين تقف عن جريانها ! اذن لتنبأت للاندلس بعز باذخ تعيده اليها .

ابو الحسن : ليكن ما يكون ، فاني لن اترك لذلك الفتـــى ان يضيع ما بقي منها .

ثريا : ولكن ابا عبد الله ولدك يا مولاي . ولكن عائشة زوجتك التي اصطفيتها ..

ابو الحسن : انت امرأة صادقة الوفاء يا ثريا ولكنك جـــاهلة لا تفقهين من شؤون الحكم شيئا . ان هذه المشاعر الهينة الصغيـــرة التي تشدنا الى أزواجنا ، الى اولادنا ، الى اصدقائنا ، ليست الا اغلالا نضعها في اعناقنا دون أن ندري . ولكن الحكم حزم دائـــم . ارادة يقظى ندوس بها مشاعرنا . ندوس بها ازواجنا . نـــدوس بها اولادنا واصدقاءنا . ارادة تقف بيننا وبينهم سدا حتى اذا مـــا صعدت تلك الاصوات المستصرخة لم تجد الى قلوبنا منفذا (مناديـا) أيها الحرس ...

ثريا : مولاي ..

ابو الحسن : ايها الحرس . خذوا الاميرة عائشة وولديها الـــى برج قمارش . احكموا القيود عليهما . وانتظروا اوامري .

(يدخل الراوي)

الراوي : ولكن هل تسكت عائشة على هذا الظلم ؟ هل تصبر على هذه المذلة ؟ لقد أيقنت في نفسها ، في حقها في ان تعمل من اجـل ولدها . فلم تستسلم لما دبر لهـا زوجها ولم تذعن لمـا دست لها ضرتها. ثم انها كانت تعلم ان اعيان غرناطة لا يضمـــرون لها الا اكبارا . ولا يرتضون غير ابنها ابي عبد الله وارثا لعرش غرناطة . لقـد انقسمت غرناطة طائفتين : طائفة منافقة لا يهمها الا ارضاء السلطان ابي الحسن، وطائفة اخرى لا تريد ان يرث الملك في غرناطة ولد من نسل جارية روميـــة . اما عائشة فقد عرفت كيف تتصل بأنصارها ، بأولئـك الذين يؤمنون بحقها ، بخلقها ، بخصالها ، بقدرتها على صون الملك في تلك الحقبة الكالحة من حياة غرناطة . وفي ليلة مظلمة ســـوداء من عام اثنين وثمانين واربعمائة وألف كان على مقربة من قصر الحمراء جماعة من الفرسان تحبس انفاسها . لقد أعدت بضعة جياد أصيـلة ووقفت الى جانبها تتطلع الى برج قمارش بعيون متوقدة متوجســة . كان البرج مظلما صامتا في تلك الليلة . ولكن الجماعة ما لبثت ان رأت ولدي الاميرة عائشة يهبطان الى الارض . ثم ما لبثت الجماعـة ان رأت عائشة تهبط بدورها بعد ان ايقنت بخلاص ولديها . وتهللت أسارير الجماعة ثم أسرعت الى الجياد فامتطتها وانطلقت في الظلمـة الصامتة الى حيث تستطيع ان تنجو من بطش السلطان ابي الحســـن وتدعو لولده الامير ابي عبد الله .

(تدخل جماعة من اهل غرناطة)

رجل : كلا . انا لا ارضى بولد من نسل جارية رومية ان يجلس على عرش غرناطة .

رجل : ما العمل اذن ؟

رجل : نظاهر الاميرة عائشة . نشد ازرها . ننتصر لها .

رجل : لو لم تكن امرأة لكانت أصلح للملك من زوجها او ولديها.

رجل : لعل ابنها ان يفيد من تجاربها عندما يعتلي عرش ابيه .

رجل : بل من ذكائها وجراتها .
رجل : ولكن اباه يؤثر عليه ولد الرومية .
رجل : كلا . لن نسمح لذلك الدخيل ان يحكم غرناطة .
رجل : فلنذهب الى السلطان ابي الحسن نسأله ان يجعل الامير ابا عبد الله وارثا للملك .
رجل : ولكن هل تأمن بطش السلطان ؟ هل تكفل لي ألا يرميني في بئر او سجن او قبو مهجور ؟
رجل : ما العمل اذن ؟
رجل : لعل السلطان ابا الحسن لم يسمع بعد بأن ابنه ابا عبد الله قد جهر بدعوته واخذ يجمع حوله الانصار ؟
رجل : لقد عاد الى غرناطة مزهوا بالنصر الذي احرزه في مدينة لوشه ، فشغله هذا عن تلك .
رجل : اظنه اراد ان يسكت الناس عما فعل بزوجته وولديه فخرج غازيا .
رجل : ولكنه عاد ظافرا .
رجل : الفضل في ذلك لقائد لوشة الشيخ علي العطار .
رجل : لو لم يسرع ابو الحسن الى نجدته لما استطاع ان يرد عساكر قشتالة مدحورين مهزومين ..
رجل : هل بلغك ما حدث ؟ يقال انهم خسروا كل شيء .. حتى ملابسهم ..
رجل : هل نذهب اذن الى السلطان ابي الحسن ؟
رجل : كلا ..
رجل : ماذا نصنع اذن ؟
رجل : ألم تسمع ان الامير ابا عبد الله قد حل وادي آش ؟
رجل : هل نخلع طاعة السلطان ابي الحسن وننادي بابنه سلطانا ؟
رجل : كلا ..
رجل : بل لا بد من هذا . هل تريد لولد من نسل جارية رومية ان يعتلي عرش غرناطة ؟
رجل : كلا .. ولكن ...
رجل : بل ننادي بالامير ابي عبد الله سلطانا ...
رجل : لقد اخذ انصاره يدخلون المدينة فيهرع اليهم اهلها افواجا .
رجل : فلنذهب اليه اذن ..
رجل : أجل . فلنذهب اليه .

(يدخل الراوي)

الراوي : ولكن ماذا يفعل السلطان ابو الحسن ؟ لقد عاد الى غرناطة فوجد ملكه يهتز تحت قدميه . اني أسأل الان : هل ينبغي للشعوب ان تفي لقائدها عندما يكون في محنة ؟ أليس من حقها ان تعتق نفسها من طاعتها ما دامت لم تسأل عن رأيها عندما جاء قائدها فملكها ؟ انا اعلم انها قد تصفح احيانا ولكن الشعوب ترفض ان تعيش على الذكريات وحدها . فماذا يهم جماهير غرناطة ان يكون السلطان ابو الحسن مقاتلا فذا ؟ ألم يقس على امرأته وولديه ؟ ألم يستسلم لتلك المرأة الرومية فوضع بين يديها مستقبل ملكه كله ؟ ولكن الانباء لم ترد لابي الحسن ان يطمئن . لقد جهر ابنه ابو عبد الله بدعوته في وادي آش . فأخذت الفتنة تنتشر كما تنتشر النار في عشب يابس . فلم يدر هل ينحني امام العاصفة فيعتزل الملك ام يقف في وجهها فيعرض غرناطة لخطر كبير كبير .

(يدخل السلطان ابو الحسن ووزير)

ابو الحسن : لا . لم يكن في ظني ان يخرج من صلبي من يريد قتالي .
الوزير : انت تعلم يا مولاي ان الشهوة الى الحكم لا تعرف لها ضابطا .
ابو الحسن : ولكن قل لي : ألم ادفعه انا الى عدائي ؟ الم اوثر عليه اخاه في غير حق ؟ الم اقذف به الى غيابة سجن رجاء ان يهلك فيها ؟
الوزير : ولكنه ابنك يا مولاي . ترى ألم يكن خليقا به ان يذعن لما تراه فلا يجعل منه موضع جدال ؟
ابو الحسن : ولكن ما رأي اهل غرناطة في هذا كله ؟ هل يؤثرون ابني ابا عبد الله ام يريدون مني ان ابقى ؟
أصوات : ليعش السلطان ابو عبد الله . ليعش السلطان ابو عبد الله .
ابو الحسن : هل تسمع ؟ ان غرناطة قد اختارت .
الوزير : كلا . انها العامة من الناس اريد لها ان تهتف كببغاء فهتفت .
اصوات : ليعش السلطان ابو عبد الله . ليعش السلطان ابو عبد الله .

ابو الحسن : هل تسمع ؟ ان العاصفة قد افلتت من القمقم الذي حبستها فيه . لقد انطلقت رياحها هازئة بي ، صارخة في وجهي . لقد أردت ان احبسها . ان امنعها . ان اضع السدود في طريقها . ولكن الرياح لم تذعن لارادتي . لم تأتمر امري . انا شيخ كبير . انسان مهدود العزم . مهدود النفس . لقد تصرفت في ملكي وفق اجتهادي . وأحسبني قد وفقت احيانا . وأحسبني قد اخطأت احيانا اخرى . اما اليوم فانا ارى بعيني ان هذا الحكم ليس الا لعبة كبيرة . لعبة نمارسها غافلين ثم نستفيق ذات يوم لنرى انها هي التي لعبت بنا . انها هي التي خدعتنا . انها هي التي اغتالت براءتنا حتى جعلت من قلوبنا مكانا تضطرم فيه الدسائس وتحتدم الشهوات ويفوح النتن منه كأنه جثة لا تسكنها غير الديدان . اجل . لقد انطلقت الرياح فلا بد لي من الانصياع لها .
الوزير : وماذا تنوي ان تصنع يا مولاي ؟
ابو الحسن : سأترك غرناطة . سألجأ الى اخي السلطان الزغل . سارحل الى مالقا .

(يدخل الراوي)

الراوي : وهكذا اعتلى الامير ابو عبد الله عرش غرناطة عام اثنين وثمانين واربعمائة والف . كان فتى في الخامسة والعشرين لم تصقله تجارب في الحياة ولم ترفده عزيمة في النفس . بل لعل قسوة ابيه جعلت منه انسانا فاتر العزيمة ، لين الارادة ، موزع الرأي . ولكنه كان مع ذلك يحلم ان يكون ملكا عظيما .

(يدخل السلطان ابو عبد الله والاميرة عائشة)

عائشة : والان قد خلص لك الملك كله يا بني ففكر في غرناطة كيف تسوسها . اجهد في ان تقيها من عثرتها .
ابو عبد الله : صدقيني يا اماه اذا قلت لك انني لا افكر الا في هذا .
عائشة : ليتني استطيع ان اثق في حكمتك كما اثق في جرأتك .
أبو عبد الله : الهذا اراك واجمة ساهمة ؟
عائشة : اني افكر في الاخطار المحدقة بغرناطة . بذلك السيل المنحدر من الشمال ، فأكاد أرى غمامة سوداء تطبق على صدري وتكتم انفاسي .
ابو عبد الله : ليت لي ما لك من بصيرة يا اماه . ولكنني اريد ان اتعلم .
عائشة : ما يزال الوقت امامك تستفيد منه كما تشاء .

ابو عبد الله : اواه يا اماه . لو تعلمين كم اريد ان اكـــون ملكا عظيما .

عائشة : بل قل ملكا صالحا يا ابا عبد الله .

ابو عبد الله : ولكنني لا اعرف كيف اكون ملكا صالحا .

عائشة : اجعل نفسك ميزانا للرعية تقيس به امورها ، فما صلح لها أقدمت عليه وما ساءها نفرت منه . وعندها لا يمكن ان تخطىء .

ابو عبد الله : ولكن قلوب الرعية لا أمان لها . انها تميل مع الرياح حيث تميل .

عائشة : كلا . انها تعرف اين تضع ثقتها . قد تنافق لهذا الملك او ذاك . قد توافق ذلك الكبير او هذا . ولكنها في النهاية تعـرف اين تضع ثقتها . اين تجد ملاذها .

ابو عبد الله : هل تجدينني قادرا على ان اكون ذلك الملك الصالح الذي تريدين ؟

عائشة : اجل يا بني .

ابو عبد الله : ولكنني انسان مغرور . متردد . نزق .

عائشة : انها نقائص تعرفها . فما اسهل ان تتخلص منها .

ابو عبد الله : اماه . اريد ان اكون ملكا صالحا ؟

عائشة : حاول اذن يا بني .

ابو عبد الله : آمديني بنصائحك يا اماه . ساعديني . ساعديني.

(تخفت الاضاءة قليلا قليلا)

ابو عبدالله : نعم . نعم . اريد ان اكون ملكا تحبهغرناطة.
تريده ان يمسح الصديد عن جبهتها ..
ان يمنع الطوفان عن ابوابها ..
لكن شيئا في دمي ..
شيئا يهدّ قوتي ..
يردني للحظة لم انسها ..
هل تذكرين ؟ انها النبوءة الملعونة ..
احسها تتبعني ..
تنذرني ..
تاكل عنفواني ...

صوت العراف : لنرفع الستر الذي يفصلنا عن الغد ..
لنزحم الريح .. لنركب خيلها ..
لنجعل الغيب يبيح سره للاعين .
اني اراك صاعدا في جبل ..
مرنحا .. مرتديا ثوبا من الدخان ..
اني ارى اؤلؤة زرقاء فوق الجبل ...
مرمية .. منبوذة ..
كانها تنتظر السيل الذي ينحدر ..
كانها تنتظر النار التي تنهمر ..
وبغتة تعتكر السماء ..
وتنبح الرياح كالذئاب ..
وتغرب الشمس كأن الافق قد سد بالف شبح رجيم
وبغتة تصبح هذي الارض مثل نفق سحيق ..
تضربه الغربان بالمناسر ..
تضربه بظلها ..
تصبغه بلونها ..
بريشها الملتطم الجريح ..
لكنني ادير عينيّ بغير جدوى
ابحث عن اؤلؤة زرقاء كانت فوق ذاك الجبل..
كانت هناك ترقب السيل الذي ينحدر ..
ابحث عنها في ضلوع الليل .
أبحث عنها في جروح الارض ..
لكنني عدت بغير جدوى ..
وخلتني أسمع صوتا شاحبا ..
صوتا .. حزينا .. باكيا ..
يصرخ في أذني كما تصرخ ام ثاكل :
هل تغرب الشمس عن الاندلس ؟
هل تخرج الغربان من وكورها ؟
لتذبح الشمس التي تولد في الاندلس ؟

ابو عبد الله : كلا .. كلا ..
لن أترك هذا الصوت الماكر يقذفني في بئر عمياء
لا اعرف فيها أين أسير ..
لن اجعل منه حديدا يصدأ في زندي ..
فليعلم اجدادي في القبر ..
اني ساضم يديّ على هذا الكنز .
ساجاهد كل يد تمتد الى غرناطة بالشر ..
سأثور .. ساصلح ما فسد ..
حتى لا تغرب تلك الشمس ..

(ترجع الاضاءة عادية . يدخل احد القواد)

القائد : مولاي !

ابو عبد الله : ما بك ايها الفارس ؟

القائد : بشرى يا مولاي . لقد هزم القشتاليون في ظاهر مالقا . كأني بالاقدار تضحك لنا مرة اخرى .

ابو عبد الله : اني لمحت جماعة من الناس تندفع هادرة صاخبة وتأخذ في الرقص والغناء .

القائد : اجل يا مولاي . ما كاد النبأ يصل الى اهل غرنـاطة حـتى هرعوا الى سوح المدينة يظهرون فرحهم بهزيمة القشتاليين ..

ابو عبد الله : وماذا حدث في مالقا ؟

القائد : لقد حاول فرديناند اقتحامها ، يريد تطويق الاندلس من جنوبها ، ولكنه هزم يا مولاي . لقد هزم يا مولاي وأسر الوف مـن اكابر القوم .

ابو عبد الله : لقد هزم فرديناند في مالقا . هزم عـــلى يـــد عمي .

القائد : نعم. لقد قاد الزغل المعركة فلم يغادرهـا حتـى دحـر جيوش قشتالة وأباد فرسانها .

ابو عبد الله : عم فارس مرهوب . كأن تلك الدمـاء تنكـر قرابتها لي .

القائد : مولاي ..

ابو عبد الله : اصدقني ايها القائد . بم يفضلني عمي ؟

القائد : مولاي ..

ابو عبد الله : منافق .

القائد : ولكنني لم أقل شيئا .

ابو عبد الله : اردت ان تـدغدغ غروري . هل اقول لك بم يفضلنـي ؟

القائد : مولاي ..

ابو عبد الله : يفضلني في المراس على القتال .

القائد : ولكنك ما تزال شابا يا مولاي .

ابو عبد الله : هل تريد مني ان انتظر عشرين سنة اخـرى حتى امتحن عزيمتي ؟

القائد : احيانا يضطر العالم ان يصمت .

ابو عبد الله : من اجل من تريدني ان اصمت ؟ لقد واـدت

لكي اكون ملكا .

القائد : لا شك في ان الايام حبلى ، فخلها تلد متى تشاء .

ابو عبد الله : يقلقني انتظار ما ستلد . ترى أليس هنالك من فرصة نغتنمها ؟

القائد : بلى يا مولاي . ولكن لم يحن اوانها .

ابو عبد الله : والى متى الصبر ؟

القائد : لا ادري . ربما حان اوانها هذا العام ، وربما تاخرت سنة اخرى .

ابو عبد الله : قل لي : ماذا حدث لجيوش قشتالة بعد هزيمتها في مالقا ؟

القائد : انكفأت الى مواقعها في الشمال تحاول ان تبلغها قبل ان يلحق بها احد .

ابو عبد الله : أنظر . ألست ترى شيئا ؟

القائد : ماذا تريدني ان ارى ؟

ابو عبد الله : جيوش قشتالة ..

القائد : ما بها ؟

ابو عبد الله : انها تجاهد جيوشنا ولكن جيوشنا تغلبها .

القائد : ماذا قلت يا مولاي ؟

ابو عبد الله : لا . لم اكن احلم . ولكن النجوم قالت شيئا لي في اذني .

القائد : هل فكرت في حديثها يا مولاي ؟

ابو عبد الله : فكرت فيه كما ينبغي لي ان افكر . الم تقل لي ان جيوش قشتالة قد انكفأت الى الشمال ؟

القائد : بلى .

ابو عبد الله : فهل نتركها تستريح ؟ هل نأذن لها في الوصول الى غايتها ؟

القائد : لندعها يا مولاي فان الفرصة لم يحن اوانها .

ابو عبد الله : بل لنلحق بتلك الجيوش . لنغز الحصون التي يحتلها ملك قشتالة . لننطلق الى الشمال .

(يدخل الراوي)

الراوي : ترى هل كان السلطان ابو عبد الله يريد القتال حقا ، ام انها كانت حربا لم يتخذ لها عدتها ، ونزوة طائشة استسلم لها فظن انها ستقوده الى نصر ما بعده نصر ؟ ولكن الاحداث لم تجر كما كان يريد لها ان تجري .

(تدخل جماعة من جنود غرناطة)

جندي : أسر السلطان ابو عبد الله ..

جندي : ماذا ؟ لم اسمع ما قلت .

جندي : أسر السلطان ابو عبد الله .

جندي : ماذا ؟ هل يؤسر سيدنا السلطان ؟

جندي : شاهدت بعيني جنديين يسوقان السلطان الى الاسر .

جندي : فلننج اذن .

جندي : لم يبق لنا الا الهرب .

جندي : فلنهرب قبل فوات الوقت .

جندي : اني اخشى ان يثار منا الناس اذا لم ننقذ سيدنا السلطان .

جندي : انقذه اذن .

جندي : بل اتركه لقضاء الله .

جندي : هل نهرب ام نبقى ؟ قل .

جندي : بل نهرب قبل قدوم الجند .

جندي : فلننج اذن .

(يخرجون مسرعين . يدخل الراوي)

الراوي : أسر السلطان ابو عبدالله . أسر في نيسان سنة ثلاث وثمانين واربعمائة ـ والف . كانت قمم الجبال تلتهب كلها كان جهنم قد فتحت ابوابها . لقد وصل الى علم القشتاليين أن السلطان أبا عبدالله قد اعتزم أن يخرج بسراياه يقصد مدينة قرطبة فجعلوا يعدون العدة لقتاله ، للانقضاض عليه عندما يجدون منه غفلة . ولكن أبا عبدالله يمضي في غزوته ظافرا ، يجتاح الحصون التي أقامها فرديناند ، ويكبس أبوابها ، ويغنم ذخائرها ، ثم يقف عند قلعة اللسانة يريد حصارها . فتدركه هناك جيوش فرديناند . فاذا النصر ليس غير بارقة كاذبة تنذر بليل كافر كافر . واذا القتال ضار لا يكاد يهدأ حتى يستعر مرة اخرى. ويذهل أبو عبدالله لهذه المفاجأة . فيحاول ان يدخل في زي مقاتل عادي لولا ان احد القشتاليين يتعرف اليه فلا يتيح له أن يهرب كما هرب الاخرون . أما الذين اتيح لهم هذا الفرار فقد هرعوا الى غرناطة يخبرون اهلها ان فرسانهم قد قتلوا ، وان حملتهم قد انتهت الى مأساة وان سلطانهم ابا عبدالله قد وقع في الاسر .

(يدخل بضعة رجال من غرناطة)

رجل : هل قلت لقد أسر السلطان ؟

رجل : شاهدت بعيني جنديين يقودان السلطان الى « كابرا » .

رجل : ما الراي اذن ؟

رجل : هل ننصب سلطانا آخر ؟

رجل : بل ندعو السلطان أبا الحسن .

رجل : هو شيخ مهدود قد اثقله داء الشيخوخة .

رجل : من نجلس فوق العرش اذن ؟

رجل : لا ادري

رجل : نختار أميرا من امراء المغرب .

رجل : بل ندعو السلطان أبا الحسن .

(يتقدم السلطان ابو الحسن)

ابوالحسن: لا ادري ماذا أصنع ان انا عدت الى الحكم . فانا شيخ قد اقعده المرض الملعون . فاذا ما نصبت عليكم سلطانا فاصبح سلطانا بالاسم . فلاترك هذا الملك لانسان غيري .

رجل : من تختار لهذا الملك اذن ؟

ابوالحسن: اختار أخي .

رجل : من ؟

ابوالحسن: السلطان ابو عبد الله الزغل

رجل : هذا والله هو الراي .

رجل : راي لا تنقصه الحكمة .

رجل : راي مقبول منا .

(يدخل الراوي)

الراوي : أما السلطان ابو عبدالله فقد وقع في أسر القائد كابرا . وسرعان ما ذهب به هذا القائد الى سيديه فرديناند وايزابيللا رهينة عظيمة لا تقدر بثمن . ولست ارتاب في ان الملك فرديناند قد فرح لهذا النبأ فرحا كبيرا . الم يحدث صدعا في صفوف غرناطة ؟ الم يظفر بسلطانها ؟ لقد حان الوقت اذن ليلهو بذلك الطامح الى الملك . فلماذا لا يتظاهر له بالوداد ؟ فلعل عينا في غرناطة أن تجد طريقها الى مائدة فرديناند فتنسكب عليها . ولكن ماذا سيكون موقف السلطان ابي الحسن ؟ هل يترك ابنه أسيرا في ايدي اعدائه ؟ ام يحاول افتداء ولده ابي عبدالله ؟

(يدخل الملك فرديناند مع بعض حاشيته ثم سفراء غرناطة)

فرديناند : كلا . لن اطلق سراح السلطان ابي عبدالله .

سفير أبي الحسن : ولكن سيدي يعرض عليك فدية كبيرة .
فرديناند : من قال اننا بحاجة الى هذا المال ؟ ان خزائننا عامرة بالذهب والحلي .
السفير : ثم ان السلطان ابا الحسن يعرض عليك أن يطلق سراح عدد كبير من آكابر النصارى المأسورين لديه اذا ما قبلت اطلاق سراح ابنه السلطان ابي عبدالله .
فرديناند : يستطيع أولئك الاسرى الانتظار أياما او أشهرا اخـــرى . أما السلطان أبو عبدالله فسيظل أسيري .
الراوي : ولكن الاميرة عائشة لم تيأس . كان همها كله أن تصل الـى انقاذ ولدها .
فرديناند : ماذا تريد الاميرة عائشة مني ؟
سفير عائشة : ان تطلق سراح ولدها .
فرديناند : ولماذا أطلق سراح ولدها ؟ ليعود الى غرناطة فيثير ضدي حربا لا هوادة فيها ؟
السفير : بل ليكون بينكما عهد ينهي ما طال من قتال .
فرديناند : وما فائدتي من عهد لا يزيد شيئا في ملكي ؟
السفير : بل يزيد فيه شيئا كبيرا فسوف يدين لك السلطان بالطاعة، ويدفع لك الاتاوة ويطلق في الحال سراح أربعمائة من أسراه تختارهم أنت . ثم يقدم اليك المعونة العسكرية كلما احتجت اليهـا .
فرديناند : وما الذي يضمن لي ان يلتزم السلطان بهذا العهد فلا يحيد عنـه ؟
السفير : ابنه الوحيد يا سيدي : يحل ضيفا بينكم حتى يكون نفاذ هذا العهـد .
الراوي : لقد راق هذا العهد الملك فرديناند . ولكنه لن يبرمه حتى ينال من أسيره الكبير ما يطمح اليه . انه يعلم ان السلطان ابا عبدالله انسان ضعيف العزم ، موهون الارادة ، قليـل الحزم ، طامع في الملك يريده مهما يكن الثمن الذي يدفعه غاليا . فماذا لو استطاع فرديناند ان يبلغ بواسطته مأربه في هدم الاندلس ، في ضرب عزيمتها ، في الاستيلاء على ما بقي من مدنها ؟ ماذا لو رضي ان يطلق سراح ابي عبدالله شريطة ان يدعو هذا لملك قشتالة ؟ ان يتنازع مع عمه الزغل؟ ان يقنع الناس بأن الصلح خير لهم من القتال ؟
(يتقدم منه السلطان ابو عبد الله)
فرديناند : لا . لا أريد ان أصدق ان السلطان ابا عبدالله قد وقع في اسري .ان شيئا في صدريصيح بي ان انكر مـا تـراه عيناي . لقد هرع الي جنودي ليخبروني بان جوادك عثر بك فسقطت عنه ، فأسرتك طائفة منهم . أكان هذا حقا ؟ ان الملوك لا يؤسرون كما يأسر السوقة . فدعني أدعوك صديقا لي لا أسيرا أتحرق الى الثأر منه .
ابوعبدالله : تستطيع ايضا ان تقتلني . ان الملوك يؤثرون الموت اذا لم يكن منه مهرب . أليس كذلك ؟
فرديناند : لنقل ان موتك لا يهمني . لقد سارعت الى قتالنا أيهـــا السلطان . فماذا لو قبلت الان أن تناضل من أجل صداقة تختم ما بيننا من نزاع ؟
ابوعبدالله : لا ادري عما تتحدث ايها الملك . ألم تبعث بجندك يهدمون قرانا ، ويستبيحون أموالنا ، ويحاولون الاستيلاء على ملكنا؟
فرديناند : اسمع أيها السلطان . ان من السذاجة أن أزعم ان جنودي كانوا ملائكة أطهارا . ولكن لنجتهد الان في ان نسدل على ذلك الامس ستارا . انني أحلم بيوم ينتشر فيه السلـــم فنصبح صديقين لا يجتمعان الا على وئام .
ابوعبدالله : كان هذا حلمي ايضا . ولكنكم ظننتم بنا ضعفا فأسرعتم الى قتالنا .
فرديناند : ستضطر يوما الى الاعتراف بانكم لستم اقوياء . اما اليوم فدعنا نزرع الزهور بدل الدماء .
ابوعبدالله : وهل تجد هذا في قدرتي ؟ اني افضل ان أغادر الحياة قبل ان الصق بغرناطة اهانة لا تستحقها ،قبل ان ارزع الزهور على القبر الذي تعدونه لها .
فرديناند : لقد أسأت فهم ما قلت .
ابوعبدالله : بل فهمته كما ينبغي . ان أسركم لي يدفعكـــم الـــى الاستخفاف بقوتي ، الى الاستخفاف بقدرة غرناطة علـى القتـال .
فرديناند : آوف . ما جدوى ان تذكرني مرة أخرى بما حدث ؟ انـنـــي انسان يعرف قدر الناس ، ولو لم أكن ملك قشتالة لحز في نفسي أن تكون أسيري . فهل فكرت أيها السلطان في هذا السلم الذي أمنحك اياه ؟
ابوعبدالله : أأنا أسيرك ؟ نعم . ولكن هنالك أشياء لا تستطيعون أسرها هل تريد ان تبث الخوف في قلبي مما قد يحدث لي؟ ولكنني أقول لكم : انكم ترتكبون خطأ مميتا عندما تظنون ان في ميسوركم اخضاع غرناطة .
فرديناند : هل أفهم من هذا أنك تهددني ؟
ابوعبدالله : خذها كما شئت . ولكنها الحقيقة أردت لك أن تعرفها .
فرديناند :الحقيقة التي تزعمها ليست الحقيقة التي نعرفها .
ابوعبدالله : لنترك للزمان ان يختار بينهما . اني أعلم أنني لم أكن اكثر اهل غرناطة بأسا ، او أشدهم بسالة ، أو أسلمهم رأيا ، ولكنني لن أكون أقلهم اخلاصا او أضعفهم ايمانا . لقـــد انتصرتم في معارك عدة . لقد كانت لكم الغلبة علينا فـــي أكثر من لقاء . ولكن عزيمتنا لم تفتر . ولكن ايماننا لـــم يضعف . ان غرناطة ما تزال تضم في صدرها فرسانا . ما تزال تمتلك في أيديها سيوفا .
فرديناند : ولكنها سيوف أعدت للقدر بسلطانها لا للدفاع عنه .
ابوعبدالله : ما أهمية أن يكون هنالك خونة مارقون ؟ ان غدر طائفة من الناس لا يفت في عزم سلطان .
فرديناند : ستعلم الحقيقة يوما ما . ان من الغباء ان اسكت هذا الصوت الذي يصرخ في صدري . لقد أردت لدولتينا أن تتصادقا . ولكن يبدو أن هذا يجعلك ترتاب في نيتي .
ابوعبدالله : آه . ليتني استطيع ان اضع ثقتي في أحد .
فرديناند : تعال يا صديقي . ان اليوم الذي يصبح الناس كلهم فيه اخيارا ما يزال بعيدا . فلننس أنك ولدت لتحكم غرناطـة فجاء من يبعدك عنها .
ابوعبدالله : وهل هذا شيء أستطيع أن أنساه ؟ لقد كنت الوارث لملك أبي . فلماذا حاولت الثريا أن تستأثر به لولدها ؟
فرديناند : يجب أن تعلم أن الملك ينال بالسيف لا بالحق فقط .
ابوعبدالله : يا لها من حية رقطاء دخلت عشنا فنفثت فيه سما . لقد كنت أتوق الى قتلها . ولكن أمي كانت تردعني . انها امرأة فاضلة عاقلة : لقد حفظت لي ملكي ، وأعانتني على أعدائي . ولو كنت أكثر استماعا الى نصحها لكان ملكي اليوم عـــلى غير ما هو عليه .
فرديناند : كدت أنسى . لقد أرسلت الينا الاميرة عائشة بسفير مـــن عندهـا .
ابوعبدالله : ليعمل على خلاصي من الاسر ؟
فرديناند : نعم . ولكنني كنت أدير هذا الامر في ذهني من قبل ان يأتي

السفير .

أبوعبدالله : وماذا طلبت من أمي مقابل اطلاقي من الاسر ؟

فرديناند : عهد عرضته علينا الاميرة فقبلناه .

أبوعبدالله : أهي صفقة تحاول عقدها معي ؟

فرديناند : سمها ما شئت . أما أنا فلست أريد منها الا الخير لك ولي

أبوعبدالله : الخير لك ولي ؟ انني لأتساءل كيف يمكن لهما أن يجتمعا .

فرديناند : ألم أقل لك انني أريد لدولتينا ان تتصادقا ؟ هذه هـــي الصفقة التي اريدها .

أبوعبدالله : ثم ماذا افعل بعدها ؟

فرديناند : ترجع الى غرناطة .

أبوعبدالله : أرجع اليها ملكا أم تابعا ؟

فرديناند : بل ملكا .. اذا استطعت ان تزحزح عمك الزغل عنها .

أبوعبدالله : وما شأن عمي بهذا الامر ؟

فرديناند :؟ لم يكن في نيتي ان أنقل اليك هذا النبأ . ولكن لا ضير في هذا بعد الان . لقد نزل أبوك عن العرش لعمك الزغل .

أبوعبدالله : عمي الزغل ؟

فرديناند : نعم . عمك الزغل .

أبوعبدالله : آه . أنا لا أتقن السباب . ولكنني أكاد أحس بفمي يزدحم بشتائم لا اسم لها .

فرديناند : أتريد أن تسمع مني ؟ اننا نعلم من عيوننا في غرناطة أن اهلها ما يزالون يؤثرون ان تكون أنت سلطانها .

أبوعبدالله : أنا أفهم أن يرجع ابي الى الملك . ان أسري يتيح له أن يعود الى العرش مرة اخرى . اما أن ينزل عن العرش لعمي فهذا أمر يجعلني أنتفض سخطا .

فرديناند : لا تعذب نفسك أيها السلطان . ان السياسة عاهرة لا يهمها من يمتلكها .

أبوعبدالله : ولكن ألم يكن يستطيع أن ينتظر عودتي ؟ أن يعمل عـلى انقاذي ؟

فرديناند : من يدري ! لعل الزغل قد دبر لهذا فاندفع أبوك الى الفخ مغمض العينين . انني ما أزال قادرا على الحكم على الرجال لقد بلغت هذه المكانة التي بلغتها وأنت لم تزل شابا . أليس في هذا ما يجعل عمك ناقما ساخطا ؟

أبوعبدالله : هل تسخر مني ؟ اية مكانة يمكن أن أدعيها عندما لا يكون في مستطاعي أن أدافع عن ملكي ؟ أن أصون عرشي ؟.

فرديناند : ألم اقل لك ان لك أنصارا في غرناطة لا يرتضون غيـــرك سلطانا ؟

أبوعبدالله : أنصار في غرناطة ! ولكن كيف اتصالي بهم وأنا اسير لا يكاد يتحرك حتى يرى عساكرك يحيطون به من كل جانب ؟

فرديناند : سننظر في هذا الامر . فلا بد أن هناك وسيلة تحقق لنـا ما نبتغيه .

أبوعبدالله : ماذا تعني بهذا ؟

فرديناند : أعني أنني قد ادعك ترحل الى غرناطة .

أبوعبدالله : وماذا أصنع في غرناطة ؟

فرديناند : تعيدها الى صاحبها . أليس هذا أفضل من بقائك في الاسر ؟

أبوعبدالله : لن يكون هذا يسيرا . فلا شك في أن للزغل جنودا يحتلون حصون المدينة ويحرسون أسوارها .

فرديناند : ستجد لدينا ما تحتاج اليه من عون .

أبوعبدالله : لا أستطيع أن أفهم .

فرديناند : سيكون لديك العدد التي تريدها . لقد وضح الان كل شيء سافتح لك مخازني لتأخذ منها ما تحتاج اليه من ذخائر ومؤن وأنفـاط .

أبوعبدالله : وماذا تطلب مني مقابل ذلك ؟

فرديناند : النصر الذي ستحرزه أنت سيفيدني أنا أيضا .

أبوعبدالله : ولكن النصر سيكون نصري . فماذا تريد مني ؟

فرديناند : اسمع أيها السلطان . ان من البلاهة ان أفرض عليك العودة الى العرش . ولكنني لا أريد ان أكون منافقا . ان عودتك الى العرش ستسرني . فانا مثلك أكره أن يؤول الملك الى عمك الزغل .

أبوعبدالله : ما أزال عاجزا عن فهم ما تريد .

فرديناند : اجتهد اذن في أن تكون لك غرناطة تحكمها .

أبوعبدالله : ثم ماذا ؟

فرديناند : ثم تعلن للناس أنك تدخل في طاعتي وتقبل حكمي .

أبوعبدالله : أهذه هي الشروط التي تضعها لاطلاقي من الاسر ؟

فرديناند : ثم تدعو الى الصلح مع قشتالة حتى لا يفكر أحد من قادتك في قتالنا مرة أخرى .

أبوعبدالله : ولكنك لن تهادن الزغل ؟

فرديناند : كلا . بل ساعمل على انتزاع ملكه حصنا حصنا . وعندما أكمل عملي هذا سيكون بيني وبينك حديث آخر .

أبوعبدالله : ساضطر عندها الى الانزواء في قصري . فانا أكـــره أن اسمع الشتائم تكال لي في غير رافة .

فرديناند : كلا أيها السلطان . بل ستكال لك المدائح . ان الناس لا يعجبون الا بالقائد الحكيم الذي يعرف أين يضع قدميه .

أبوعبدالله : ولكن غرناطة ؟ ماذا سيكون من أمرها ؟

فرديناند : سنكفل لها حرياتها . سنضمن لها عقائدها وأموالها .

أبوعبدالله : اني أطالبك بالعهود تقطعها . ألا تؤذي غرناطة في شيء ؟

فرديناند : كما تريد . لك هذه العهود التي تطلبها . يمكنك أن تثق بي .

أبوعبدالله : ولكن ماذا سيقول الناس عني ؟

فرديناند : انسان عاقل حكيم لا يسير في الليل بعينين مغمضتين .

أبوعبدالله : بل أداة في يد ملك قشتاله يسيرها كما يشاء .

فرديناند : وماذا يضيرك أن يقال عنك هذا ؟

أبوعبدالله : اني أكره ان أكون أداة في يد أحد .

فرديناند : ولكنك لن تكون اداةفي يد احد .انني اؤمن برجولتك ايها السلطان ، انني أثق بقدرتك على الحكم . واذا صح ان الارض لا يرثها الا الصالحون من الناس فانا اريد لذلـــك العرش الذي اغتصبه عمك الزغل منك أن يرجع اليك . فهل تقبل هذه المساعدة مني ؟

أبوعبدالله : نعم . اقبلها .

فرديناند : فليكن موعدنا القادم غرناطة .

(يفترقـان)

(يدخل الراوي ثم رجال)

الراوي : ربض البيازين . في تلك الضاحية من غرناطة بدأت الفتنة . أنا أعلم أنكم تكرهون الفتن كرهي لها . ولكن ما جدوى ان ننكرها ؟ أن نخفيها حتى لا نتهم بها ؟ افتحوا كتب التاريخ كلها . اقرأوها . هل تجدون فيها عصرا خلا منها ؟ هـــل تجدون فيها عصرا كان أصوب رأيا او احكم سياسة او اقوى بصيرة من عصر السلطان ابي عبدالله ؟ ولكن غرناطة لم تكن تحتاج الى فتن تقوضها ، بل الى معجزة تنقذها . معجزة تنفخ في روحها . تنفخ في عزمها . حتى ترجع مدينة قوية صامدة مرهوبة . ولكن الذي حدث في غرناطة سنة ست وثمانين واربعمائة وألف كان سيلا . كان طوفانا . كان كارثة قصمت ظهرها ، وأذلتها ، وأدت في النهاية الى زوالها . لقد عاد السلطان ابو عبدالله الى ربض البيازين . فأخذ

يجمع حوله أنصارا ويستميل قادة . ثم ما لبث الملك فرديناند ان امده بالعتاد والذخائر والمؤن يحرضه على قتال عمه الزغل وانتزاع الملك منه.وعلىالرغم منهذا كله فقد ظل اهل غرناطة على ولائهم للسلطان الزغل لا يرون في الافكار التي كان أبو عبد الله يدعو اليها غير خيانة مقنعة لا سبيل الى قبولها .

رجل : ماذا يعرض علينا أبو عبدالله .؟
رجل : السلم
رجل : أي سلم تعني ؟
رجل : نقبل الصلح مع ملك قشتالة وينتهي هذا القتال
رجل : ومن يكفل لنا الا يحنث الملك فرديناند بالعهد ؟
رجل : لسنا أغبياء أيها الرجل . ليس السلطان غبيا .
رجل : أنا لا أثق بالملك فرديناند .
رجل : ولا أنـا .
رجل : ولا أنـا .
رجل : ولكنكم تثقون بالسلطان أبي عبدالله .
رجل : لا أدري . قد يكون السلطان أبو عبدالله علـى صواب . ولكنني لن أغمس يدي في دماء أنصار الزغل من أجل صلح مع الملك فرديناند .
رجل : قد ينتهي الامر من غير قتال .
رجل : أجل نخذل الزغل فينتهي الامر من غير قتال .
رجل : هذه خيانة لا أرضاها .
رجل : لقد فعلها اهل ربض البيازين فلم يدع احد انها كانت خيانة.
رجل : بل هي خيانة لا ارضاها .
رجل : ستثكلك امك ان انت نطقت بهذا السباب مرة اخرى
رجل : وما شأنك بي ؟
رجل : لا آذن لك بأن تصم أهل ربض البيازين بالخيانة .
رجل : لا تأذن لي ؟ ولكن من تكون أنت ؟
رجل : أنا واحد منهم .
رجل : قل لي من اين جاءتكم الانفاط تقذفوننا بها ؟ مـن أيـن جاءتكم الامداد تحشون بها معدكم الشرعة ؟
رجل : ماذا تعني بهذا ؟
رجل : أعني ما أعني
رجل : ألم تفهم أيها الرجل ؟ ان ملك قشتالة يمدكم بها لتقويـض دولة غرناطة .
رجل : بل لتقويض دولة الزغل .
رجل : أنت تعترف اذن بأن ملك قشتالة كان من وراء هذه الفتنة .
رجل : اخسأ . انها ثورة في سبيل حق صريح .
رجل : لا تردد هذه الكلمة ! لا ترددها ، فأنت تعلم انك لا تعنيها .
رجل : ماذا تريد مني اذن ؟
رجل : أريدك ان ترجع الى سيدك فتخبره بأن أهل غرناطة سيقفون مع سلطانهم يقاتلون اذا قاتل ويسالمون اذا سالم .
رجل : لن يغفر لكم السلطان ابو عبدالله هذه الخيانة التي تعلنونها
رجل : هل سمعتم بمثل هذه الوقاحة ؟ انه يتهمنا بالخيانة .
رجل : أجل . انها خيانة .
رجل : أخرس
رجل : اقلت لي : اخرس ؟ سأقتلك أيها الوغد .
رجل : تقدم .

(يتماسك الرجلان)

الراوي : لم يدم القتال يوما أو يومين بل دام شهورا طويلة كانـت الفتنة فيها متصلة ضاربة يقتل فيها الاخ اخاه ويصرع فيها الجار جارا له كان بالامس موضع سره وقبلة هواه . ولكن متى كانت الشهوة الى الحكم عاقلة في خططها ؟ سمحة في حروبها ؟ اما أهل غرناطة فقد ظلوا على ولائهم لسلطانهـم الزغل لا حبا بالزغل بل ايمانا بان ابا عبدالله أصبح اداة في يد الملك فرديناند يصطنعها لهدم دولـة الاندلس وزرع الشقاق بين أبنائها . ولعل الزغل قد أدرك ما كان الملـك فرديناند ينتوي فعزم على فتح ربض البيازين عنوة فنـدب اهل غرناطة لقتالهم وقال لهم : (يتقدم الزغل)

الزغل : ان هؤلاء القوم قد حلت دماؤهم وأموالهم لنصرتهم اعـداء الله فمالهم الا السيف .

الراوي : ولكن الملك فرديناند كان يدرك أن فتنة البيازين لا يمكـن أن تنجح اذا هو تركها للسلطان الزغل يخمدها كما يشاء فعزم على اشغاله بالحرب في مكان آخر .

(يدخل أحد الجنود)

جندي : مولاي
الزغل : ماذا حدث ؟
جندي : لقد خرج ملك قشتالة لقتالنا . لقد قصد الى بلش مالقا يريد افتتاحها .
الزغل : بلش مالقا ؟ ولكن سقوطها سيجعل مالقا فريسة سهلـة لكل طامع فيها .
جندي : ماذا نفعل يا مولاي ؟
جندي : هل نبقى هنا لنخمد الفتنة في ربض البيازين ؟
جندي : أم نذهب لنصرة بلش ؟
الزغل : رباه ماذا أختار ؟ ان الفتنة هنا توشك ان تبلغ نهايتهـا . لقد حلت الهزيمة بأولئك الغادرين . ولكن لا بد مـن ابقاء بعض القوات لانهائها . أما بلش مالقا فلا يمكن أن نسمـح بوقوعها في أيدي القشتاليين . ان مصير مملكة غرناطـة بكاملها يتوقف عليها . ان سقوطها سيعني زوال هذه المملكة الى الابد .
جندي : هل تذهب قوة منا الى بلش مالقا ؟
الزغل : أجل .

جندي : وابن اخيك ابوعبدالله؟ هل نتركه ينتهز هـذه الفرصة ليوطد مكانته في غرناطة .؟
الزغل : لا خيار لي في الامر . هل نترك بلش مالقا تسقط اذن في أيدي القشتاليين ؟ انها خطة ادرك خطرها . ولكن لا خيار لي في الامر . اني اعلم انني قد اعرض ملكي كله للزوال . ولكن ما قيمة ملكي اذا زال ملك المسلمين عن هذه الارض ؟ لقد كتب لي ان اقاتل عدوين : احدهما خصم اكرهه ويكرهني اما ثانيهما فابن اخ لي كان يمكن ان يكون ساعدي في هـذه الحربوسنديفي القتالضد اعدائنامعا.ولكن لا بد ممالیسمنه بد . لتبق طائفة منكم لقتال ابي عبدالله ، ولنهرع نحن الى بلش مالقا .

(يدخل الراوي ثم رجال)

الراوي : ولكن الملك فرديناند علم بعزم السلطان الزغل على القتـال فاعد لكل شيء عدته . ولم تكد جيوش السلطان تصل بلش مالقا حتى انقض عليها عساكر الملك فرديناند فهزقوها . كان الليل قد احلولك حتى صار ظلمة عمياء ، فلم ير أحد كيف جاءت تلك الجيوش وكيف قاتلت وكيف اندحرت . وسقطت بلش مالقا في أيدي القشتاليين فـي نيسـان سنة سبع وثمانين واربعمائة والف .
رجل : هل بلغك النبأ ؟

رجل : اي نبأ ؟
رجل : لقد سقطت بلش مالقا .
رجل : أهزيمة أخرى تضاف الى هزائمنا ؟
رجل : يا للذل ! صار قوتا نلوكه ليل نهار .
رجل : يا للهزيمة ! ان مرارتها تحرق أحشائي .
رجل : ما العمل اذن ؟
رجل : ألم تر انى رجال السلطان ينسلون الى المدينة مخذولين مدحورين ؟
رجل : وددت لو بصقت في وجوههم .
رجل : يا للعار ! لقد انهزمت جيوش الزغل قبل أن تقاتل .
رجل : لعلها قاتلت ثم انهزمت .
رجل : بل انهزمت من غير قتال .
رجل : هل تظن أن في الامر خيانة ؟
رجل : لا أدري .
رجل : بل هي هزيمة كغيرها من الهزائم .
رجل : ولكن ماذا نصنع نحن ؟
رجل : نغلق أبوابنا وننتظر .
رجل : ننتظر ماذا ؟
رجل : ننتظر أن نذبح في بيوتنا .
رجل : وسلطاننا الزغل ؟ ماذا نفعل به ؟
رجل : نقتله .
رجل : بل نغفر له هذه الهزيمة كما غفرنا له غيرها .
رجل : لعل له عذرا لم يبلغه علمنا .
رجل : اذن نعيده سلطانا علينا .
رجل : كلا . لن نعيده .
رجل : ما العمل اذن ؟ لا نستطيع ان نبقى من غير سلطان .
رجل : ندعو السلطان أبا عبد الله الى الملك .
رجل : مرة أخرى ؟
رجل : ولم لا ؟ هل كان أسوأ من ابيه سيرة ؟
رجل : او عمه ؟
رجل : أجل . ندعو السلطان أبا عبد الله
رجل : أجل . أجل . ندعو السلطان أبا عبدالله

الراوي : وهكذا عاد السلطان أبو عبدالله الى عرش غرناطة مرة ثانية . أما السلطان الزغل فلم يكن يعلم ان غرناطة قد ثارت عليه فسار اليها يقصدها . ولكن صدره أخذ يدق دقا عنيفا قويا عندما بلغ مشارف المدينة فوقعت عيناه عليها .
(تلة تشرف على غرناطة . يدخل الزغل مع بعض الجنود)

جندي : أنظر يا مولاي .
الزغل : ماذا ترى ؟
جندي : لقد اغلقت المدينة ابوابها .
الزغل : لعل المدينة خافت أن يدخلها القشتاليون على حين غفلة منها .
جندي : أكبر ظني ان شيئا ما قد حدث فيها .
الزغل : ولكن هذه الرايات التي أراها مرفوعة فوق الحمراء ..
جندي : ما بها يا مولاي ؟
الزغل : انها ليست راياتي .
جندي : كلا يا مولاي . انها رايات ابن اخيك أبي عبد الله .
الزغل : ترى ماذا حدث اذن ؟
جندي : لعل أحد الجنود قد أخطأ
جندي : أجل . لا شك في ان احد الجنود قد أخطأ في اختيار الراية
الزغل : كلا . لا تحاولوا خداعي . لقد رجع أبو عبدالله الى غرناطة فملكها . فلم يبق لي الان اعود الى وادي آش لادفن هناك حسرتي. لانتظر نهايتي. لانتظر نهاية هذا الملك العظيم الذي آل الي . اني أعلم الان أن هذه الهزيمة لم تكن هزيمتي وحدي ، بل هزيمة أبي عبدالله أيضا . ولعلها ان تكون هزيمة غرناطة كلها .

الراوي : السلطان الزغل باق في وادي آش . لقد انقسمت مملكة غرناطة الى مملكتين أولاهما يحكمها الزغل . والاخرى يحكمها ابن أخيه السلطان أبو عبدالله . اما الملك فرديناند فانه ما يفتأ يضرم العداوة بين الملكين . ولكنه يعلم أنه اذا استطاع أن يستولي على مملكة الزغل فان غرناطة ستصبح معزولة عن العالم كله ، تنتظر وحدها ان يمر عليها ذلك السيل المنحدر من الشمال فيبتلعها . ولكن ماذا يفعل السلطان الزغل ؟ انه يرى جيوش فرديناند تنقض على حصونه فتقتحمها ، وتفتح قراه فتمتلكها ثم يتلفت حواليه لعل هنالك من ينجدها فلا يكاد يرى أحدا .

جندي : مولاي . لقد حاصر القشتاليون مالقا . طوقوها من البر . طوقوها من البحر .

الراوي : ولكن ماذا يستطيع السلطان الزغل ان يفعل ؟ انه باق في وادي آش لا يجرؤ ان يسير بقواته لنجدة مالقا خوفا من غدر ابن اخيه السلطان أبي عبدالله . ان قلبه ليذوب حسرة ، وان ضميره لينفطر اشفاقا . ولكن مالقا لا تستطيع ان تنتظر من ملكها أن ينقذها .

جندي : مولاي . مالقا محاصرة . لقد قطعت كل صلة لها بالبلاد التي تحيط بها ، لقد نفدت أقواتها . لقد نضبت أمدادها . لقد فتك الجوع بها . فهل تنقذها يا مولاي ؟

الزغل : رباه . رباه . ماذا أصنع ؟

جندي : مولاي . ان لم تنجد مالقا سقطت في أيدي اعدائها .

الزغل : رباه . لم كتبت على ان ارى بعيني نهاية هذا الملك العظيم ؟ اني لأتلفت حولي فلا أرى الا ليلا مظلما يحيط بي من كل جانب . ولكن اين ملوك المسلمين ؟ اين استبسالهم في الجهاد في سبيل الله ؟ أين دعواهم في الدفاع عن دين الله؟ هل ماتت في دمائهم النخوة ؟ هل نضبت في عروقهم الشهامة ؟ لاكتب اليهم . لارسل اليهم من يستفز حميتهم ويوقظها . من يذكرهم بهذه الارض التي نسوها والتي توشك أن تخرج من يدنا الى غير رجعة .

الراوي : ويكتب السلطان الزغل الى السلطان بايزيد سلطان القسطنطينية والى الاشرف قايتباى سلطان مصر يبلغهما استغاثة الاندلس بهما .
(قصر السلطان بايزيد في القسطنطينية)

بايزيد : كلا . لن أترك مالقا . لن أترك الاندلس كلها تسقط في أيدي القشتاليين .

الوزير : أفهم هذا يا مولاي . ولكن ما العمل ؟ لقد سقطت مدن الاندلس الواحدة تلو الاخرى ولم يبق أمام القشتاليين غير مملكة غرناطة يفتتحونها .

بايزيد : هل تظن ان التاريخ سوف يغفر لنا هذا ؟

الوزير : لعلك لم تنس يا مولاي ان ما بيننا وبين مصر من خصومة يدفعنا الى شيء من الحذر في هذا الشأن . فمن يدري ؟ فقد تنتهز مصر هذه الفرصة للنيل منا .

بايزيد : سنتدبر أمر مصر عندما تنتهي هذه المحنة التي وقعت فيها مملكة غرناطة . اما الان فلا بد ان نصنع شيئا . لا بد ان نصنع شيئا .

الوزير : كما شئت يا سيدي ، غير اني ...
بايزيد : لعلك تسأل نفسك فيم انتصاري لمالقا ؟ لغرناطة ؟
لاني اعلم ان سقوطهما محنة سوف نجني مرارتها بعد حين .
لاني ارى فوق غرناطة راية تنحني للرياح .
لاني ارى ايكة غرست في النجوم .
يراد لها اليوم ان تقطع ..
لاني ارى اليوم سفرا من المجد يطوى .
ودربا الى الشمس يصبح قبرا ..
وماذا تخاف اذا نحن سرنا لانقاذها ؟
أتحسب أن الوباء الذي تشتكي منه غرناطة سوف يغفل عنا ؟
وأن السهام التي جرحتها سترتد عنا فلا تجرح ؟
أكاد أرى بركة من دم يغسل الغاصبون ثيابهم السود فيها ..
واسمع اصواتهم كالنباح .
يضج .. فيسكت صوتا حبيبا .. حبيبا ...
اترك مالقا ؟
أترك غرناطة كلها تستغيث فنغلق اسماعنا ؟
نعم . أنا اعلم اني لست ابنها ..
ولكنها اختنا في كتاب السماء .
أتقبل مني اذن أن أرى ، ساكنا .. جامدا ..
لا يحركني صوتها الضارع ؟

الوزير : فهمت مرادك يا سيدي .. فليكن ما تشاء ..
بايزيد : سنرسل اسطولنا يعبر البحر حتى يجيء صقلية .. فيحاصرها ثم يقتنص منها ..
الوزير : ولكن فتح صقلية لن يغير شيئا ..
بايزيد : بلى . سوف يضطر قشتالة أن تقاتل أسطولنا في البحار . فتشغلها الحرب عن ذبح اخواننا ..

الراوي : ولكن هل ذهب ذلك الاسطول الموعود لفتح صقلية ؟ لست ادري . ان التاريخ لا يذكر لناشيئا . قد يكون الاسطول خرافة من تلك الخرافات التي يزدحم بها التاريخ . قد يكون فكرة طارئة ما لبثت ان ذهبت الى غير رجعة . وقد يكون حقيقة قلبتها دسائس القصور ومصالح الدول الى امنية لم تستطع ان تصبح واقعا . ولكنني لا أشك مع ذلك في ان محنة غرناطة قد أثارت في نفس بايزيد تلك الغضبة القوية الصادقة . ولا شك أيضا في ان مثل تلك الغضبة القوية قد ثارت في صدر سلطان مصر الاشرف قايتباى .
(قصر الاشرف قايتباى في مصر)

قايتباى : لعلك سمعت أيها القس المبجل بما حدث في غرناطة ؟
الراهب : نعم يا مولاي . كدت لا أصدق أذني . خيل الى ان دم المسيح يراق مرة أخرى .
قايتباى : لقد اخترتك وانت كبير رهبان بيت المقدس لتكون سفيرنا الى البابا .
الراهب : هذا شرف عظيم يا مولاي .
قايتباى : ثم لتكون بعد ذلك سفيرنا الى ملك نابولي ثم الى فرديناند وايزابيللا ملكي قشتالة وأراغون .

الراهب : آمل ان يكون في مستطاعي ان اخدم مولاي السلطان .
قايتباى : أنت كبير رهبان بيت المقدس أيها القس المبجل ، ولذا فانت افضل من يخبر عن معاملتنا لرعايانا من غير ابناء ديننا . انتم الوف مؤلفة ، تعيشون بيننا كاخوة لنا ، لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا . لم نؤذكم يوما في عقائدكم ، ولم نمنعكم عن صلواتكم ، ولم ندنس لكم حرما ، ولم ننهب لكم معبدا . اموالكم لكم . وحرياتكم ملككم . اما اخواننا في الاندلس فلا يجدون الا الأذى ، ولا يطعمون الا الدموع . لم يبق لهم بيوت يأوون اليها ، أو معابد يصلون فيها . دماؤهم مهدورة . واموالهم منهوبة . ودينهم مضطهد . هذا ما يفعله ابناء دينك ايها القس المبجل . يخيل الي انا ايضا ان دم المسيح يراق مرة أخرى ، اذهب الى البابا فاساله ان يكف شر ملكي قشتالة وأراغون عن اخواننا في الدين . وقل لملك نابولي ان ينصح لهما بالامتناع عن ايذائهم . أما اذا رفضا طلبنا فان لدينا وسائل نستطيع ان نرغمهما بها على التوقف عن التنكيل بابناء ديننا . قل لهما ان ما يحدث في الاندلس يمكن أن يحدث في مصر . والقصاص عدل . والبادىء اظلم .

الراوي : وغادر القس مصر لتأدية سفارة الاشرف قايتباي . ويقال انه وصل الى اسبانيا في خريف سنة تسع وثمانين وأربعمائة والف . ويقال ان البابا قد كتب الى فرديناند وايزابيللا يسألهما ان يكونا اكثر لينا في خططهما . ويقال ان ملك نابولي قد كتب اليهما يلومهما على اضطهاد المسلمين في البلاد التي افتتحاها . ويقال ان فرديناند وايزابيللا قد استقبلا القس بترحاب منافق . ويقال ايضا انهما حملاه رسالة الى سلطان مصر يزعمان فيها انهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما من المسلمين والنصارى ، وان المسلمين يستطيعون اذا شاؤوا ان يعيشوا في ظل حكمهما راضين مكرمين . ولكن مدن الاندلس كانت تتساقط في يد فرديناند كما يتساقط الورق اليابس . فماذا يجدي الاشرف قايتباي ان يصله هذا الزعم فيعيد اليه الطمانينة ؟ وماذا ينفع الاندلس ان يفكر سلطان مصر في ارسال الجيوش الى المغرب لتعبر منها الى الاندلس ثم لا يكاد يفعل شيئا ؟
(يدخل الزغل مع بعض الجنود)

الزغل : ماذا يفعل كل أولئك الملوك ؟ ماذا يفعلون ؟
جندي : مولاي . لقد سقطت مالقا .
الزغل : ويلي . من ينقذ هذا الملك المهدوم ؟
الراوي : أجل . لقد سقطت مالقا في شهر آب من سنة سبع وثمانين وأربعمائة والف ، بعد ان دافع رجالها عنها مدة أشهر ثلاثة سقطت بعد ان فتك بها المرض وهزمها الجوع والاعياء حتى اكلت البغال فيها والتمست أوراق الصبار فاتخذت قوتها .
جندي : لقد نكث فرديناند بالعهد الذي قطعه لاهل مالقا . لقد قرر ان يجعل منهم عبيدا يفتدون انفسهم بالمال او يرسفون في الرق الى يوم يهلكون .
جندي : لقد دخل القشتاليون مالقا فسبوا نساءها وقتلوا رجالها ونهبوا اموالها حتى اضطر ساكنوها الى النزوح عنها .
الزغل : ويلي ! ويلي ! من ينقذ هذا الملك المهدوم ؟
جندي : مولاي . لقد سقط ثغر المنكب .
جندي : مولاي . لقد سقطت مدينة المرية .
الزغل : ويلي ! ويلي !
جندي : مولاي . لقد سقطت مدينة بسطة .
الزغل : ماذا قلت ؟
جندي : قلت لقد سقطت بسطة . نهكها الجوع . نهكها نقص الاقوات نهكها سريان الداء .
الزغل : هل غادرها أهلوها ؟
جندي : مولاي . لقد قصدوا وادي آش .
الزغل : ماذا يستطيع وادي آش أن يؤوي ؟
جندي : لم يبق لنا الا وادي آش .
الزغل : هل سقطت كل الاحواز ؟ هل هدمت كل الاسوار ؟

جندي : لم يبق الا وادي آش .

الزغل : رباه . رباه . قل لي ماذا اصنع . هل اواصل القتال ؟ ان الموت لا يرعبني بل يعينني على أن أهرب من ذاتي . ولكن هذه النهاية التي اكاد ابصرها بعيني هانين كيف استعد لها؟ هل أترك رجالي يتصارعون مع الموت وانا أعلم انها معركة خاسرة لا أمل فيها ؟ لا بد انني قد هرمت . انني أقترب من الموت ولكن الموت لا يريد ان يقترب مني . أما تلك الدماء التي ارقتها فما كان أضيعها ! نعم . لقد سئمت السير . سئمت هذه الاغصان الذابلة أسكب عليها الماء فتأبى أن ترجع مورقة . فهل سمعني احد اصرخ : دعوني هنا . دعوني هنا ؟ رباه . قل لي ماذا أصنع . هل أواصل القتال أم استسلم لفرديناند ؟ أترك له ملكي . أترك له هذه الارض يخضعها ، يذلها ، يسوسها بالشريعة التي جاء بها .

(يتقدم من الملك فرديناند)

فرديناند : مرحبا بالسلطان النبيل .

الزغل : لا تدعني سلطانا . ان هذه الكلمة لا تذكرني الا بعاري . خذ هذا الملك مني .

فرديناند : بل يظل لك هذا الملك ولكن تحكم فيه باسمي .

الزغل : اسياسة هذه ام فخ ؟

فرديناند : بل قائد يكبر قائدا .

الزغل : هل ابقى في الحكم اذن ؟

فرديناند : نعم . تبقى في ظلي . في ظل بيارق قشتالة .

الزغل : واسمي ؟ قل ماذا اصنع باسم خاو كالطبل المثقوب ؟

فرديناند : سيكون لك اسم آخر . هل حاكم أندرش يرضيك ؟

الزغل : واعيش بماذا ؟

فرديناند : بعطايا منا نغدقها من غير حساب .

الراوي : ولكن هل يستطيع الزغل أن يطيق هذه المذلة التي اختارها؟ هل يستطيع ان ينال الراحة التي يحلم بها ؟

الزغل : كلا . لا راحة لي . خذ مني هذا الملك . خذ مني هذا الاسم دعني اجتاز البحر الى المغرب . لأموت هناك . لأعيش هناك لاعيش بقية أيامي .. شيخا منبوذا ملعونا .. يقتات الذلة .. يمضغها . يسقيها من صدر باك مذبوح . من عين يفقؤها العار .

الراوي : وهكذا رحل السلطان الزغل الى المغرب . فهل بقي على فرديناند وايزابيللا ملكي قشتالة واراغون غير مدينة غرناطة بنفسها حتى تكون لهما دولة الاندلس خالصة لا يشاركهما في حكمها شريك ؟ انهما يتطلعان حولهما فيبتهجان لقد دانت لهما الثغور كلها . لقد دانت لهما الحصون كلها . فماذا هما منتظران ؟ ان السلطان أبا عبد الله ليس الا اداة في أيديهما يستطيعان ان يرميا بها في اية لحظة . فليرميا بها اذن . انهما يعلمان ان تلك السماء التي افتتنا في تزيينها ما يزال ينقصها قمر كبير يضيئها . فليرسلا الى السلطان أبي عبدالله بسفيرهما ينقل اليه رغبة . يذكر عنده عهدا . يطلب اليه ان يقدم رأس غرناطة ليذبح على مائدة فرديناند كما تذبح الشاة .

(قصر الحمراء في غرناطة . أبو عبد الله .
موسى بن أبي الغسان . سفير الملك فرديناند .
اعيان الدولة .)

ابوعبدالله : لم افهم ماذا تعني .

السفير : يريد مولاي الملك فرديناند ان ينقل اليك رغبة ، ان يذكرك عهدا .

ابوعبدالله : ماذا يعني الملك فرديناند بهذا ؟ لقد قمت بما التزمت به فلم أنقص منه شيئا .

السفير : بل نقصت شيئا هاما يا سيدي .

ابوعبدالله:لقد أعانني في القتال ضد عمي . أسلم لك بهذا . ولكن قل لي ألم يكن انتصاري على الزغل انتصارا للملك فرديناند ايضا ؟

السفير : ولكن الملك فرديناند لم يكتف بالامداد ينجدك بها بل انتقل الى ملك الزغل فافتتح بسطة والمرية ووادي آش .

أبوعبدالله : لا استطيع أن أنكر أن شيئا من هذا قد حدث .

السفير : فأذن لي اذن في ان اذكرك بذلك العهد مرة اخرى .

أبوعبدالله : قل . أفصح ماذا تعهدت للملك فرديناند ؟

السفير : ما جدوى ان اذكرك بما تحاول ان تنساه ؟ الم تعد الملك فرديناد بتسليمه مدينة غرناطة عندما يكمل افتتاح غيرها من مدن الاندلس ؟

ابوعبدالله : هل سبق مني مثل هذا العهد ؟

السفير : نعم يا سيدي ، وان لم يكن عهدا مكتوبا .

ابوعبدالله : ولكن غرناطة ليست ملكي . ليست جارية ابيعها لكل طامع فيها .

السفير : لا يلوح لي يا سيدي انك تعلم .

ابوعبدالله : أعلم ماذا أيها السفير ؟ بلى . اني اعلم . أعلم انني تركت الشر يتفاقم حتى لم يعد في ميسوري ان اضع له حدا. أعلم أنني تركت السيل ينحدر نحوي حتى صرت لا أملك ان أضع أمامه سدا .

السفير : ابمثل هذه الاقوال تريدني ان أعود الى مليكي ؟

ابوعبدالله : لا استطيع أن افعل اكثر من هذا . قل لسيدك أن يؤجل تسليم غرناطة عاما آخر او عامين .

السفير : كان يجب ان احزر هذا . ولكن سيدي لن يقبل منك عذرا. لن يهب لك عاما او عامين حتى تسلم اليه المدينة التي يحلم بها .

أبوعبدالله : لا تزد . يكفيك ما قلت .

(اضاءة خافتة)

ابوعبدالله : رباه . رباه . قل لي ماذا تريد مني . اني اخاف أن يضيع صوتك عني فلا اكاد أعلم الى أين انتهي . لقد سرت في هذه الطريق الى نهايتها . لقد تركت ذخائرك ينهبها الناهبون فلم ارفع اصبعا للدفاع عنها ولم أطلق سهما للجفاظ عليها . ألم أقل يا رباه ان صدري لم يعد غير تابوت لا ينطق فيه سوى الموت ؟ انني لا اسمع منك صوتا . اني لا المح منك اشارة . ولكنني اريد ان اعلم ماذا تريد مني ، ماذا تريدني ان اصنع . انا اعلم انني آثم مذنب . ولكن ابتهل اليك ان تهب لي ذنبي . ان تهب لي اثمي . ترى هل كنت غير اداة في يد تلك القوة القاهرة التي لا نعرف اسمها ؟ اني انصت يا الهي فأسمعني صوتك! اصرخ في وجهي اذا شئت . قل لي ما تشاء من نعوت ولكن لا تتركني وحدي في هذه الظلمة الكافرة . انها أرضك يا رباه ، فتحت باسمك العلي . بنيت باسمك العلي . غرست باسمك العلي . جاءها أولئك القادمون من الصحراء فاقاموا فيها معجزة ما كان أعظمها ! ثم جئتها انا . ورثتها كما يرث المرء دينا . ورثتها مثقلة باخطارها . مثقلة بمكائدها مثقلة بالصديد الذي ينزف منها . ولكنني لم أكن ملكا صالحا . انا اعترف بهذا يا رباه فهل تغفر لي ؟ لقد غدرت بابي . لقد مكرت بعمي . ثم مددت يدي الى أعدائك واعدائي فذللت لهم فتح ما صعب من حصون . وابحت لهم ما حرم من أرض . فهل استطيع اليوم ان اطمع في أن تصفح عني ؟ اني لاقف صاغرا باكيا ثم أحدق حولي فلا أكاد

ارى الا بحرا . بحرا خاضه اجداد لي فقادهم الى السماء التي لا تطلع منها غير الشموس . وهانذا أتاهب الان لاخوضه مرة ثانية وأنا أعلم انه لن يقودني الا الى ظلمة لا شمس فيها . ولكن قل لي يا رباه : هل أسير بقدمي حافيتين على هذا البحر حتى أصل اليك ؟ وماذا يهمني ان كنت لا ألمح وراء هذا البحر غير عدم قاتم ؟ ألست تنتظرني هناك لتمسك بيدك الكريمة على جبهتي ؟ ألست ترقب آوبتي اليك لتزيل عن يدي هذا الصديد العالق بها ؟ أنا طائر أصابته صاعقة رعناء فهدت جناحيه . فقل لي : هل أزحف اليك على ركبتي ؟ هل أقبل هذا التراب الذي وهبته لي قبل أن أغادره الى غير رجعة ؟ لقد كان لي وأنا طفل قلادة أضعها على صدري ، قلادة كان أحد أجدادي يحملها عندما وطئت قدماه أرض الاندلس اول مرة . لقد كنت فخورا بها عندما كنت صبيا . ثم أضعتها . قيل لي آنذاك انني ساضيع هذا الملك كما أضعت القلادة . ولكنني لم أصغ الى ماكان يقال لي . واليوم يا رباه اعد لي قلادتي . اعد لي قلادتي التي أضعتها . انني أخاف ان أنظر الى صدري فلا أجدها . لقد حلمت منذ أيام . رأيتني على شاطىء رملي احدق الى السماء . وبغتة لمحت على الموج شيئا يلمع في ضوء الشمس . فمددت اليه بصري فرأيت قلادتي. كانت هناك يا رباه . كانها تنتظرني . كانها تدعوني . ولم اتردد. خلعت نعلي ونزلت الى البحر . ولكن القلادة كانت تبتعدعني كلما ازددت اقترابا منها . وطال سيري حتى ادركني العياء وأفقت من حلمي وأنا أصرخ ، القلادة . القلادة . انني أعلم الان أن هذه البحار التي تفصلني عنك لا شطآن لها . لا نهاية لها . فقل لي ماذا تريدني أن أصنع ؟ ماذا تريدني ان أصنع ؟

(ترجع الاصداء عادية)

السفير : ماذا ؟ لم اسمع شيئا . هل قلت تسلم غرناطة ؟

ابو عبدالله : كلا . انا لم اقل شيئا . لم اقرر شيئا . فاسال اهل غرناطة فالقول لهم كله .

وزير : الرأي رأيك يا مولاي . انشئتقاتلناو شئت سلمنا .

وزير : ولكن اي فائدة لنا في هذا القتال ؟ ان غرناطة اصبحت وحدها . لا سند لها . لا منقذ لها .

وزير : فهل ترى تسليمها اذن ؟

وزير : ارى ان نفاوض الملك فرديناند على شروط ترضيه ولا تسيء اليها .

وزير : فاذا رفض؟

وزير : قاتلنا ..

وزير : بل نقاتل من غير ان نفاوض .

وزير : هذا خطل في الرأي لا اشاركك فيه .

وزير : ترى أليس في مقدورنا ان نحصل على شرف غرناطة من غير ان نقاتل ؟

وزير : هل نظن ان الملك فرديناند سيحفظ لغرناطة شرفها ؟

وزير : نحاول ان ناخذ منه عهدا .

وزير : سينكث به .

وزير : اذن نقاتل .

وزير : هذا هو الغباء . فقد نهزم مرة اخرى .

موسى : سيكون الموت عندئذ اعذب من الحياة .

السفير : لعل هناك اناسا ما يزالون يؤثرون الحياة على الموت.

موسى : فلينزحوا عن المدينة . ليتركوا لنا امر الدفاع عنها .

السفير : دعني اذكرك ايها الفارس بما حل بمالقا .

ابو عبدالله : يا للكارثة ! لا اظن الملك فرديناند سيفعل بغرناطة ما فعل بمالقا .

السفير : الا اذا اضطررتموه الى ذلك .

ابو عبدالله : اتعني انه ينوي حصارها .. اجاعتها .. ضربها بالانفاط ؟

السفير : الا اذا قبلتم تسليمها ، فتحها من غير قتال .

موسى : تسليمها ؟ فتحها من غير قتال ؟ أتظن حقا ان فيغرناطة من يرضى بهذا ؟

السفير : لم تسألني ايها الفارس ؟ يمكنك ان تذهب الى مالقا فتسأل سكانها . هل تخال ان الجريح يستطيع ان يختار بين يد تمتد اليه بالدواء ويد تمتد اليه بالسكين ؟

موسى : نعم . عندما تكون الحياة التي يراد له ان يحياها تشبه الموت .

السفير : عجبا . كانني اشم رائحة لحم يحترق .

موسى : لتحترق اللحوم كلها : اني اعرف من اين تهب تلك الرائحة .

السفير : أتهددني ؟ ان هذه الكبرياء التي تظهرها لا تدع لنا فرصة للاتفاق .

موسى : لا بد انك لم تفهم ما قلت .

السفير : لم تتعمد اهانتي ؟

موسى : الدم الذي في عروقي يأبى ان يصبح ماء .

السفير : ولكنه يصبح الفاظا . هل اردته هكذا

موسى : لك ان تأخذه كما تشاء . اما أنا فقد اردته سدا .

السفير : ولكن لم ترفضون هذه اليد التي يمدهااليكم الملك فرديناند ؟ الستم ترون انه لا يريد لكم الا ان تعيشوا آمنين مكرمين في هذا البلد ؟

موسى : هذا ما يريده لنا .. اما ما يريده منا ؟

السفير : تسلمون اليه المدينة ليحكمها .

موسى : بل قل : ليستذلها . ثم ماذا ؟

السفير : ثم تلقون بالاسلحة التي تقاتلونه بها .

موسى : اذن فقل لسيدك : اذا كان يريد اسلحتنا فليأت بنفسه لاخذها .

السفير : هل يعني هذا انكم عازمون على القتال ؟

موسى : نعم . القتال .

السفير : لا ادري هل اجيبكمهازئا ام اشيح بوجهي كانني لم اسمع شيئا . هل قلتم القتال ؟ ولكن اي قتال تعنون ؟ لقد انفقتم اوقاتكم كلها يخاصم بعضكم بعضا ويقتل بعضكم بعضا ، لا تردعكم عن قتالكم قربى ، ولا يصرفكم عن خصامكم احساس بالخطر الكبير الذي يتهددكم ، كأن الارض قد خلت الا منكم فلم يعد فيها عدو يتربص بكم ، او خصم يرتقب منكم غفلة حتى ينتزع منكم هذا الملك الذي لا تستأهلونه. بل دعوني ازعم انكم كنتم تكرهون بعضكم بعضا اكثر مما تكرهوننا . فكم من كبير منكم جاءنا يحذرنا مما يدبر لنا كبير اخر . وكم من امير منكم بذل لنا الطاعة والارض لعلنا نكفل له منصبا او نعيد اليه ملكا ، او نخلع له ابا عن عرش يطمعفيه. وبذلك كان لنا منكم الطاعة تعلنونها والاتاوات تدفعونها والمعونة تطلبونها تارة وتقدمونها لنا تارة اخرى . ترى هل كنتم جادين في الدفاع عن هذه الممالك التي آلت اليكم ؟ هل كنتم قانعين بالقضية التي تقاتلون من اجلها ؟ لقد رايتم مدنكم تسقط تباعا فماذا فعلتم ؟ لقد هربت طائفة منكم بدينها فجازت البحر الى افريقية وكان الامر لم يعد يعنيها . وخنعت طائفة اخرى فدخلت في ديننا نفاقامنها

وايثارا لسلامتها . اما الذين خافوا على دينهم ولكنهم لم ييأسوا من الدفاع عنه فقد جاؤوا الى مدينتكم هذي فملأوها . ثم اخذوا ينشرون فيكم روح المقاومة والرغبة في الثار . ولكنكم ترتكبون خطأ فادحا عندما تستمعون الى ما يوسوس هؤلاء في اسماعكم .اندفاعكم عن غرناطة لن يطيل في عمرها . فانتم تعلمون ان من السهل ان نهزمكم مرة اخرى .. ان قتالكم لنا لا يعني الا هزائم اخرى . ترى هل تريدون لهذه البقية من اهل غرناطة ان تقتل على ايدينا كما قتل غيرها ؟ لقد انتهت غرناطة . لقد سقطت قبل ان تسقط . فلم يبق لكم الا قبول ما نعرض من شروط راضين او كارهين .

ابوعبدالله : اسكت . انست ترى ايها السفير ان في اقوالك هذي تهديدا لا يليق بمثلك ان يقوله لمثلي ؟

السفير : سمه ما شئت . ولكنها الحقيقة اردت لكم الا يفوتكم سماعها .

ابو عبدالله : لشد ما اود انينفدصبري فأقتلك على ما قلت .

السفير : وماذا يفيدك قتلي ؟

ابوعبداله : قشتالي اخر يقتل على يدي . ترى هل تريد انتعرف كم قشتاليا قتل على يدي ؟

السفير : سيعرف الملك فرديناند كيف يثأر لي .

ابوعبدالله : قل له اذن ان يثأر لك . ان يثأر لكل القشتاليين الذين قتلوا على يدي .

السفير : هل تحتفظ بي ؟ ام تتركني اذهب اليه لاخبره بذلك ؟

ابو عبدالله : بل اتركك تذهب اليه .

السفير : وماذا اقول له ؟

ابوعبدالله : قل له ان السلطان ابا عبدالله يرفض تسليم غرناطة.

الراوي : اجل . لقد رفض السلطان ابوعبدالله تسليم غرناطة . صنع ما لم يكن احد يظن ان ذلك السلطان الضعيف يمكن ان يصنع . وبدأت الحرب . هبط فرديناند الى مروج غرناطة وهي زاخرة بالزرع ، ضاحكة بالخصب ، فعاث فيها ثلاثين يوما ثم تركها خربة مقفرة كأن ارضها لم تشهد شجرة تزين اديمها او حبة تتململ في رحمها . ثم عاد اليها مرة ثم مرة يضرب ابوابها ،ويحرق غلالها ، ويعيث في مزارعها . واهل غرناطة مع ذلك صابرون، يقاتلون فيقتلون ويقتلون . ولكن فرديناند يحشد لقتال غرناطة فوق ما تستطيع غرناطة ان تحشد من رجال فينهزم اهلها اليها، ويغلقون ابوابها . لقد فقد الغرناطيون مزارعهم . لقد فقدوا الحصون التي تحمي مدينتهم . ولم يبق لهم غير المدينة نفسها، يرتدون وراء اسوارها يائسين جازعين جائعين . فماذا يستطيع السلطان ان يفعل ؟ ماذا يستطيع موسى ان يصنع ؟ ان الاصوات التي تصل الى مسامعهما لا يمكن قهرها .

(تدخل جماعة من اهل غرناطة)

رجل : انقذنا .

رجل : انقذ ما ابقت منا هذي الحرب .

رجل : هل تبصر ماذا حل بنا ؟

رجل : لم يبق بناء لم يهدم.

رجل : لم تبق زروع لم تنهب.

رجل : لم يبق اناء لم يكسر .

رجل : اما الاحداق فقد جافاها ضوء العينين .

رجل : الجوع اضر بنا . صرنا اشباحا لا ظل لها .

رجل : قطعت كل السبل . هل من امل في فوت يأتينا بعد الان ؟

رجل : اما الفتيان فقد اودى بهم الموت.

رجل : ماتوا بالسيف .

رجل : ماتوا جوعا .

رجل : قل ماذا تنتظر ؟ النجدة ؟

رجل : النجدة ممن ؟

رجل : النجدة من اخوانفي بر المغرب .

رجل : قد سد الدرب الى المغرب .

رجل : قطع القشتاليون جميع الطرق الى المغرب

رجل : وصلوا ابواب البحر

رجل : سدوا آفاق البر

رجل : ماذا نصنع ؟

رجل : زدنا اعياء منذ بداية هذي الحرب

رجل : اما القشتاليون فقد زادوا قوة .

رجل : تأتيهم كل صباح امداد لا حصر لها .

رجل : لكنا في غرناطة محصورون فلا مدد يأتي او قوت .

رجل : والبرد اليس له آخر ؟

رجل : سنموت اذا دام البرد .

رجل : سنصير جليدا او حجرا .

رجل : فل ماذا نأمل غير الجوع يدوم الشهر وراء الشهر .

رجل : وعدو ترقبنا عيناه ، لا يغفل عنا حتى في النوم .

رجل : ويعد لنا مونا مرا .

رجل : ماذا لو نسأله انيقبلمناهذاالصلح؟

رجل : كلا . فالبرد سيجبره ان يرجع عن هذي الحرب .

رجل : لا شك بأن كتائبه ضعفت .

رجل : ألهذا قد قطع الحرب ؟

رجل : ماذا لو نسأله ان يقبل منا هذا الصلح ؟

رجل : اني اخشى ان يرفض عند قدوم الصيف .

رجل : قد يقبل منا ما نطلب منه اليوم .

رجل : اما في الصيف فقد يابى .

رجل : الان يحس بأن عساكره تعبون من الحرب .

رجل : قد تأتيه جيوش اخرى ان حل الصيف .

رجل : قد يؤثر ان يرضى ما نعرض من صلح .

رجل : اما في الصيف فلن يقبل منا الا استسلاما او موتا .

رجل : هل نساله ان يقبل منا الصلح ؟

رجل : اني اخشى الا تسلم انفسنا منه .

رجل : قد يغدر .

رجل : قد ينكث بالعهد .

رجل : قد يجعل منا عبدانا .

رجل : قد يجعل من سور الحمراء جدارا لا تتدلى منه سوىالاعناق.

(يقترب منهم موسى بن ابي الغسان وابوعبدالله)

موسى : كلا . لن نطلب منه هذا الصلح . لن نخدع بالذل المخبوء وراء الصلح .

رجل : لا تعجل يا موسى . لا تغلق هذا الباب المفتوح على السلم .

موسى : هذا الباب المفتوح على السلم ؟ لا شك بانك لا تعني ما قلت.

رجل : بل اعنيه . هل تطلب منا ان نقتل ؟ ان نصبح جرذانا تفنيها اقدام الجند ؟

موسى : بل اطلب منكم ان تحيوا . أن يحيا فيكم ما مات . بل اطلب منكم الا تنخدعوا بالذل المخبوء وراء الصلح .

ابوعبدالله :دعهم ياموسى . فالامر لهم . ان شاؤوا قاتلت كما شاؤوا . او شاؤوا صلحا فالصلح اشاء .

موسى : كلا يا مولاي . اني لاحلم احيانا فأرى غرناطة قد عادت الى سابق عهدها ولكن هذا الحلم سرعان ما يتوارىعندما اسمع هذه الكلمة تتردد على السنة الناس : الصلح . ماذا تعني هذه الكلمة ؟ ماذا تريد منا ؟ لماذا تلاحقنا كأنها لعنة سوداء لا قدرة لنا على الفرار منها ؟ قل لي يا ابا عبدالله اليست غرناطة امانة

غاليـة نحملهـا في صمائرنـا كمـا نحمل تلك الروح التي تنبض فيها؟ فقل لي كيف نفرط بهـا ؟ كيف نسلمهـا الى اعدائها ؟ سيكـون هـذا ماساة لا استطيع ان اجد لها وصفـا .

ابوعبدالله : اسمع يا موسى . اسمع اصوات الناس .

موسى : كلا . لن اسمع هذى الاصوات . لن اسمع الا صوت الله. يدعونـي .. يأمرني ان انقذ هذا الدين من الدنس ... ان انقذ هذي الارض مـن السيـل ..

صوت : لا . لا تتركنا نمضغ أشواك الارض .
صوت : لا . لا تتركنا ناكل لحم الفئران المقتولة .
صوت : انقذني . انقذ اطفالـي .

ابو عبدالله : اسمع يا موسى . اسمع اصوات الناس . انـا مثلـك مذبوح القلب . مصلوب فوق جدار من عار . لكنني لا اسمع صوتالله. لا اسمع الا هذي الاصوات . اصوات تدعوني ان انقذها . ان ارفـع عنهـا هذاالخوف . ان امنـع عنهـا هذا الويل . ان اتركهـا تحيـا فوق الطيـن .

موسى : ماذا تنوي ان تصنع اذن ؟
ابوعبدالله : افاوض الملك فرديناند .
موسى : تفاوض الملك فرديناند ؟
ابوعبدالله : نعم . سارسل اليه الوزير ابا القاسم .
موسى : ولكنك لن تنقذ بذلك غرناطة .
ابوعبدالله : سانقذ اهلها من الجوع . اليس هذا كافيا ؟
موسى : اما غرناطـة ؟

ابوعبدالله : اما غرناطة فلن ينقذها احد . لقدسقطت غرناطة منذ سنين . بل لعلهـا سقطت قبل ذلك بسنين لا استطيع لها عدا . انـا اعلم انك تجدني مسؤولا عن نكبتها . عن ضياعها . ان في عينيك كرهـا لا تستطيع عيناي ان تنسياه الى اخـر الدهر . ولكـن لا تلمنيياموسى. لقد حاولت ان اعيـد الى غرناطـة كبرياءها ، ان اعيد اليها قوتهـا. ولكن الوقت كان قد فات . هل تريدني ان اقص عليك الحكاية كلها ؟ انت تعرفها يا موسى . فاتركني افعل مـا يريده الناس مني .

الراوي : وهكذا ذهب ابو القاسم عبدالملك الى ملـك قشتاله ليعلم منه اي شروط يريـد ان يعرضهـا اذا مـا سلمت اليه غرناطة .
(ابو القاسم عبدالملك يقرأ في ورقة طويلة)

ابو القاسم : اتفق الملكان العظيمان فرديناند ملك قشتالة واراغـون وابوعبدالله محمـد بن علي ملك غرناطة على ايقاف القتال بينهمـا مدة سبعين يومـا ، يسمح فيهـا للجانبيـن باستدعاء النجدات وتجنيـد القوات، فاذا انتهت هذه المدة ولم تصل الى اهل غرناطة نجدة مـن اخوانهم في افريقيـة سلمت المدينة الى الملك فرديناند الذي يلتـزم بتبادل الاسرى وحمايـة الشعائر الدينية لا يبدل فيهـا ولا ينتقص منها ولا يجبر اصحابها على تركها . كمـا يلتزم ايضـا بصيانة حقـوق المسلميـن فيترك لهم مالهم مـن اموال ومدارس ومساجـد واوقاف ويحترم ما عندهم من نظم وقضاء وشرع كمـا يلتزمباعفاء المسلميـن مـن الضرائبمدة ثلاث سنين ، وتمكينهم من التجارة مع بلاد المغـرب وقشتالة والاندلس من غير مكوس يدفعونها غير التي يدفعها النصارى. ويؤكد ايضاحـق كل مسلم فـي ان يجوز الى افريقيـة اذا شاء في سفن يقدمها ملـك النصارى لمدة ثلاث سنين من غير كراء او نفقة ، كما يؤكد حق كل مسلم جاز الى افريقيـة ان يعـود الىالاندلس خلال سنيـن ثلاث .. ثم يؤكـد الملك فرديناند ان جميع المسلميـن سوف يعاملـون .. (يضيع الصوت) .

(يدخل ضابطان من ضباط قشتالة)

الضابط الاول : ياللغباء ! متى كان الفاتحون يلتزمون بالعهود التي يقطعونهـا ؟

الضابط الثاني : لك فم تخرج منه الحقيقة كانهـا فيل ضخم .لماذا لا تصبـح اكثر نفاقـا ؟

الضابط الاول : لا حيلة لي في هذا . اني امقت اولئك الغرناطيين.

الضابط الثاني : كما يمقتهم الملك فرديناند .

الضابط الاول : وملكتنا ايزابيللا ؟ انك تعلم حماسها لدينها .

الضابط الثاني : ورجال الدين ؟ من قال انهم سيرضـون بهـذه الشروط .

الضابط الاول اكبر ظني اننا مقبلون في المستقبل على مذابحرائعة.

الضابط الثاني : بركة من الدماء في كل مكـان .

الضابط الاول : ومحاكمـات تعمل على ازهاق الكفر .

الضابط الثاني : اما هذه الاكداس من مؤلفات المسلمين فسيأتـي احـد القسس فيجمعهـا ويضرم النار فيها .

الضابط الثاني : امـا هذه الاكداس من مؤلفات المسلمين فسيأتـي احد القسس فيجمعها ويضرم النار فيها .

الضابط الاول : ياللغباء ! وماذا سيكون من امر السلطان ابيعبدالله؟

الراوي : امـا السلطان ابو عبدالله فقد نصت المعاهدة على انيغادر غرناطـة الى منطقـة البشرات القريبة منها ، يعيش فيهـا من ضيـاع يخصص بها ، ويقيم في اندرش في طاعة ملك قشتالة .

الضابط الثاني : ترى هل يطيق السلطان ابو عبدالله الاقامة بيننا؟

الضابط الاول : سنرغمه على النزوح اذا أطاقها . سنرمي به الـى البحـر ليجتازه الى المغرب .

الضابط الثاني : الانأعلملماذا صبر عليه الملك فرديناند ؟ فانا اخاف ان تثور غرناطـة مرة اخرى فتطالب بسلطانها .

الضابط الاول : سيكون عند ذاك نهايتها . الم تفهم هذا ايها الرفيق؟

الراوي : ولم يبق الا ان يصادق اعيان غرناطـة على التسليم . ولكن شيئا من الارتياب ما يزال يقلقهم كلمـا فكـروا فـي نيـات الملـك فرديناند فعجزوا عن كشفها . فهل يرفضون المعاهدة ؟ هل يقذفون بها في وجه الوزير ابي القاسم ؟ ام يستسلمون لعزيمتهم الخائرة فـلا يجـدون امامهم غير قبولهـا؟

(مجلس السلطان ابي عبدالله)

ابو القاسم : هذه هي المعاهدة .

وزير : ليس في الامكان ابدع مما كـان

وزير : مـاذا نفعل بها ؟

وزير : لا ادري

وزير : هل نقبلهـا ؟

وزير : لا ادري

وزير : هل نستطيع ان نفعل غير هذا .

قائد : نقاتـل .

وزير : نقاتل ؟ ونحن على هذه الحال من البؤس والاعياء ؟

قائد : لا سبيل لنـا الا القتـال

وزير : بل نقبل المعاهدة .

قائد : كـلا . اني لا آمن غدر القشتاليين بنا .

امام : لا حول ولا قوة الا باللـه

قاض : لا راد لقضاء اللـه

وزير : ان صدري يكاد ينشق حزنا

امام : لا حول ولا قوة الا باللـه

وزير : هل تبكـي ؟

امام : لم يبق لنا عين نبكي بها .

قائد : يا مجدا يذبح كما تذبح الشاة

قاض : لا راد لقضاء الله

وزير : فلنقبل ما جاء به ابو القاسم

وزير : اجل . فلنقبل ما جاء به ابو القاسم .

وزير : هل نستطيع ان نصنع غير هذا ؟

موسى : أجل . نستطيع . ترى هل تريدون مني ان اصدق ان هذا الصلح الذي يعرضه علينا الملك فرديناند يمكن أن ينفذنا ؟ انا اعلم انني لن اجد في صدوركم تلك الجذوة التي انطفأت نارها . هذا امر يثير نقمتي . ونكن لندع الان نقمتي وشأنها . انني اعلن انني افضل ان اصرع ميتا على ان ارى غرناطة تسلم الى غاصبها من غير قتال . فهل انتم معي في هذا ؟ لقد جاعت المدينة كما تعلمون. لقد هدمت اسوارها . لقد اغتيل فتيانها . اسلم لكم بهذا كله، ولكن ما الذي يدعونا نحن ابناءها الى تسليمها ؟ هل ننال بهذا امنا ؟ هل نصيب بهذا سلما ؟ هل نصون بهذا حقا ؟كلا . انكم تحلمون . ان هذا كله ليس الا بداية لنهاية مفزعة . ان بصيصا من النور ما يزال يضيء . ولكن الى متى ؟ لقد حذرتكم اكثر من مرة . ولكن ماذا حدث ؟ لعلكم كنتم تجدون في اقوالي ثرثرة لا طائل وراءها . ولكن هبوا ان اقوالي لم تكن غير ثرثرة فماذا كان يضيركم لو انكم اصختم اليها ؟ لقد كانت الدروب تثرثر ايضا . كانت القلاع تثرثر ايضا .حتى النجوم في منازلها كانت تثرثر . ولكنكم أثرتم الا تصيخوا اليها .هل كان هذا خيانة منكم ؟ كلا . انا لا استطيع ان اصدق هذا . ولكن تلك الثرثرة كانت تتكسر على آذانكم كما تتكسر على حجارة صماء. واليوم تريدون ان تستسلموا كانكم لا تبصرون غرناطة تهتز تحت اقدام فاتحيها . الحقيقة انني لم اكن اول من حذركم او آخرهم . ولكن ما يزال في الوقت متسع . فكروا في دمائكم تراق من غير قتال . فكروا في بيوتكم تنهب في غير رأفة . فكروا في نسائكم يغتصبن على مرأى منكم فلا تستطيعون شيئا . فكروا في ارضكم تسلب منكمالى غير رجعة . هل قلتم : انني احلم ؟ ما هذا السكون الذي ليس له نهاية ! هل انطفأت تلك الذبالة التي كنت احسبها بصيصا ؟ ايها الرجال . ان البكاء لا يليق بكم . فاذا كنتم لا تستطيعون انقاذ غرناطة فموتوامن اجلها . اجعلوا من اجسادكم سدا في وجه ذلك السيل المنحدر من الشمال . اقول لكم هذا وانا اعلم اننا قد لا نجد قبورا تضم اجسادنا عندما نموت . ولكن ما اهمية ذلك ؟ انني اثق بان هناك سماء ستهب لنا بركتها . الن يكون هذا شيئا عظيما؟

الراوي : ولم ينطق احد بكلمة . كان الالسنة صارت احجارا لا حس فيها . لا دفء فيها . وانتظر السلطان ابو عبدالله هنيهة خيل اليه انها طالت حتى غدت دهرا . ثم نظر الى الرؤوس فابصرها مطرقة واجمة وحدق الى العيون فرآها ضائعة مقهورة فادرك ان الرواية قد انتهت فصولها ، اما تلك الراية التي رفعها التاريخ على تلك الارض فقد جاء من ينكسها فاطرق باكيا ثم قال :

ابوعبدالله : « الله اكبر . لا اله الله محمد رسول الله . ولا راد لقضاء الله . ان لساني ليتلجلج وان وجهي ليخجل . بيد اني اقول لكم انه قضاء اللهنزل بي فثل عرشي وطوى فرشيونكس لوائي وجعل نهاية هذا الملك على يدي . على انني لا انكر عيوبي فانا معدنالعيوب ولا اجحد ذنوبي فانا جبل الذنوب ، ولكن الذي حاق بنا حاق بغيرنا. فتلك بغداد دار السلام ، قد نوزلت بالجيوش فزلزلت ، وعوجلت بالزحوف فاخضعت ، وبادرها التتار بالسيف حتى جرت دماؤها، وخربت مساجدها وديارها ، واخترم بالحسام اشرارها وخيارها، وماذا كانت تستطيع غرناطة ان تصنع ازاء قدر محتوم وقضاء لا مرد له؟ والقضاء لا يرد ولايصد ، ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع الا المستطاع . فالى الله اشكو عجزي وسقطاتي واخطائي » .

موسى : لا تعجل يا اباعبدالله ، لا تسلم غرناطة .

ابوعبدالله : وماذا اصنع اذن ؟

موسى : نقاتل من اجلها .

ابوعبدالله : ليت هذا كان ممكنا . ولكن انظر . هل ترى في هذه الوجوه عزيمة على القتال ؟ هل ترى فيها رغبة في الموت في سبيل غرناطة ؟ لقد حكى لي عن ريح تجعل الناس كاعجاز نخل خاوية ، لا بد ان شيئا ما من هذا قد حدث في غرناطة. .

موسى : لا يا ابا عبدالله . بل نستطيع ان نحمل الناس علىالقتال.

ابوعبدالله : وهذه المواكب من الجائعين من اهل غرناطة ؟

(تدخل مواكب الجائعين)

رجل : الجوع . الجوع . الجوع .

امراة : الارضصارت امراة لا رحم لها .

رجل : انقذني . انقذ اطفالي .

امراة : انظر . لم يبق بثديييغير القيح ينز فاطعمه طفلي .

رجل : أنقذنا . اقبل بالصلح .

امراة : لم يبق لدينا غير الطين نسد به جوع الاطفال .

رجل : انقذنا قبل فوات الوقت .

امراة : ماذا تخشى ؟لن يقتلنا غير الجوع . لن يخضعناغير الجوع.

رجل : ماذا تخشى ؟ هل ابقت منا الحرب سوى الظل ؟

رجل : انقذنا . اقبل بالصلح .

رجل : ماذا تخشى ؟ انا موتى من غير قبور .

ابوعبدالله : قل يا موسى . ماذا اصنع ؟ ماذا اصنع ؟

موسى : اصنع ما تشاء يا ابا عبدالله . اما انا فسافعل ما يليق بي . ساترك غرناطة الان . سآمر على طرقها فاقبلها حجرا حجرا . ساحفر مناظرها في عيني . ساخترق قصر الحمراء . سافتح صدري لاحمله فيه كما احمل عصفورا ناعم الريش اخاف عليه من الريح . ساطبع هذه الوجوه كلها في ذاكرتي .. في ذاكرتي التي تابىانتموت ساحمل اسلحتي كلها . ساطير بها ، لا اسلمها لجندي مخمور من جنود قشتالة . ثم ارحل عن غرناطة ، لا ابصر الذل الذي تنتظرون ان تروه دون ان تحركوا ساكنا ، سارحل عنها ، لا اسمع اقدام القشتاليين تطأ ابهاء الحمراء كانها تثار منها . كانها تهزأ بها . سارحل عنها ، لا ارى جنود قشتالة ينهبون ما للناس من مال ويدنسون ما لله من ملك ، ثم يسوقوننا جميعا في الاغلال خانعين، صاغرين . اصنع ما تشاء يا اباعبدالله . اما انا فانني راحل .راحل الى حيث لا تسمع بي اذن او تقع عليّ عين .

(يندفع موسى خارجا من المسرح)

الراوي : اليوم هو اليوم الثاني من شهر كانون الثاني عام اثنين وتسعين واربعمائة والف . يوم الذل . يوم الغم . يوم البكاء . يوم الندم الذي يلذع كالشرار . يوم تسليم غرناطة . هل تبصرون مثليجنود قشتالة يتقدمون الملكين لاحتلال قصر الحمراء ؟ هل تبصرونالطرقات قد خلت منالسابلة فليسيرى فيها انسان ؟ ان الابواق لتنبحصارخة منذرة فمن ترى يسكتها ؟ ايهاالموت الذي يأبى ان يأتي ! لا تتركنا نجرع هذه الكاس المسمومة دون ان تنقذنا منها . اننا بقية من كبر مقهور .. بقية من غضب مكسور ، فلماذا لم تلق بنا الى النار؟ ايها الموت الذي يأبى ان يأتي ! انظر الى مندوسا يرفع على برج الحمراء صليبا فضيا كبيرا . انظر اليه يزرع على صارية الحمراء علم قشتالة . ولكن من نكون نحن لنبكي على غرناطة ؟ اني لاحس بالخزي كلما مر في بالي ان هذه الجنازة لم تكن آخر جنازة شهدتها . فيا للاقنعة الكاذبة ما نكاد نخلعها حتى نبصر ما وراءها من تجاعيد مفزعة فنعيدها ثانية . ولكن لماذا لا ندع المأساة تصل الى نهايتها ؟ لقد حان اوان الخروج من غرناطة . انها

الرمال الظمأى تنتظر ان تأكل لحمنا حيا . هذا هو السلطان ابوعبدالله قد اقبل يحمل على مخدة من مخمل ارجواني مفتاحا ذهبيا ضخما . مفتاحا من دمع . مفتاحا من دم . وها هما فرديناند وايزابيلا يقتربان في موكبهما الباذخ ليستقبلا ابا عبدالله . ليشيعا ابا عبدالله. ليأخذا منه مفاتيح غرناطة .

ابو عبدالله : لم يبق لنا الا التسليم لامر الله ..
انا عار الا من ذلي . انا عار الا من حزني
عار الا من يأس يترك صدري تابوتا لا ينطق فيه سوى الموت .
يا ريحا تهدم اسواري
يا برقا يكسر مرآتي .
هذي ابوابي قد نزعت . هذي انهاري قد نضبت .
هذي كلماتي قد يبست ..
يبست حتى لم يبق لها صوت .. حتى ضاع المعنى منها ..
حتى صارت احجارا ترجم اوثانا لا اسم لها ..
لو كنت الها ..
لو كانت كلماتي تخلق كونا من عدم .
لو كان شبابي لم يشرب من سيل ..
من قيح ..
من جرح ينزف كالبئر .
لو كان الماضي ريحا عمياء نعيد لها ضوء العينين .
لوقفت بباب الحمراء ..
ادعوها . اوقظ فيها تاريخا لم يشبع من نوم اعمى ..
لم يشبع من موت مذعور ..
من أسر لم يبق لها غير الظل
لرجعت ارد لها طيب الفرسان الثاوين وراء القبر .
لهربت بها من ليل الكبر المذبوح
لنأيت بها عن مرآة تتهاوى فيها اطياف الايام المرة .
لجعلت حجارتها اصدافا .. عقدا في عنق الكون .
ولعشت بها ..
انسانا لا يطلب جاها او مالا ..
لا يعشق الا زهر الليمون ..
الا غصنا تتدلى منه عناقيد من ضوء مسحور ..
واليوم قد اهترأ الثوب ..
فانظر ما تصنع بالبلد العاري
هذا ملكي قد صار اليك ..
فاعدل في شعبي .. في اهلي ..
خذهم بالرفق .
خذهم بالعدل ..
عدهم بحياة لا يقلقهم فيها رعب .
لا تصفعهم فيها ريح هوجاء
لا تجلدهم فيها اصوات العار ..
هذا ملكي ..
لم يبق به الاعصار سوى اشباح جائعة العين .
اشباح جائعة الكبر ...
خذها . خذ هذا الوجه المهزوم ..
خذ هذا الكف المرتعش المذبوح بسكين الاقدار .
خذ منه مفاتيح الحمراء .
خذ منه بياض محاجر اجدادي ..
هذا مفتاح لم تمسسه يد من قبل .
مفتاح يفتح قبوا في غرناطة .

قبوا مسدودا قد حبست فيه ازهار جاء بها عبدالرحمن الداخل يوم اشاحت عنه الشام ..
قبوا مسدودا فيه ليلكة كانت تتأرج في بيت من ابيات دمشق .
فيه رايات قد عبرت مع طارق امواج البحر ..
ووشاح كان بقرطبة ايام الفتح ..
وخلاخيل كانت ولادة تلبسها في قصر ابيها المستكفي ..
فيه أقلام كان ابن زيدون يسقيها من يده شعرا ..
فيه قرطاس كان الشيخ الاكبر يكتب فيه ..
ودواة كان ابن رشد يغمس ريشته فيها ..
فيضيىء بها ليل الجهل ..
فيه قنديل قد شهد ابن طفيل يخلق انسانا من عقل ..
خذها .. خذها ..
خذ مني مفتاح القبو ..
(يتقدم فرديناند فيتناول المفاتيح من ابي عبدالله)
فرديناند : صفحا ان كنت اسأت الى أحد .
هذا عهدي . ميثاق اجعله ما بين الناس وما بيني .
لا أجعل مملكتي سجنا . لا اجعل انصاري جلادين يذيقون الناس سياط الذل . لا انهب مالا او دارا . لا أجبر انسانا ان يدخل في دين لا يرضاه . لا اقضي الا بالعدل . لا انصب اتباعي حكاما فوق رؤوس رعايا مملكتي . لا اجعل فرقا بينهم الا بالحق .
هذا ميثاقي . فليشهد رب الارباب على صدقي .

ابو عبدالله : اما انا فانني اسير الى البحر بقدمي حافيتين . لقد انتهت الرحلة باعصار لم يبق وراءه شيئا . فأين الفرار ؟ اني اترك غرناطة مذنبا ، آثما ، ذليلا ، محزونا ، احمل اخطائي واخطاء جميع اولئك الذين جاؤوا قبلي .
انا آخر المذنبين في حق غرناطة ولكنني لم اكن اولهم . انيأذهب الان الى البحر . الى المنفى . الى الموت . اما ما سوف تجيء به الايام لي فآمر لا يعنيني . لقد أديت دوري في هذه الحياة . ولكنه كان دورا مفزعا ، موجعا ، اليما . فليغفر الله لي اخطائي . لقد ضاعت غرناطة على يدي .

دمشق — عمر النص

فارس مدينة القنطرة

مجموعة قصص

بقلم الدكتور

عبد السلام العجيلي

٢٥٠ ق.ل. — صدر حديثا

منشورات دار الآداب